حسن البنداري

سلوى الـــروح

(رواية)

الناشر
دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع
القاهرة – مصر القديمة ٩٥٣ كورنيش النيل



سلوى الروح

رواية

المؤلـــــــف: حـــــــسن البـــــــنداري
العـــــنوان: ســــلوى الــــروح (روايـــــة)
تـــــاريخ الطـــــبعة الثانـــــــية: ٢٠٠٧

رقم الإيداع: ٢٣٨٥ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-6121-39-X
الناشـــر: دار الإبـــداع للـــصحافة والنـــشر والـــتوزيع
العـــنوان: ٩٥٣ كورنـــيش النـــيل - مـــصر القديمـــة.
البريد الإلكتروني:E.mailDarelebdaa@hotmail.com
ت: ٥٣٢٦٧٤٤-٥٣١٢٣٢١- ٠١٠٦٦٣١٥٨٤
رئـــيس مجلـــس الإدارة: د. هـــدى الكومـــي
المديـــر العـــام: منـــى عـــثمان
لـــوحة الغـــلاف: للفـــنان أحمـــد الـــديب

تـنويه: كتبتُ هذه الرواية وأنا في سن السادسة عشرة، في صيف عام ١٩٥٧، ونشرتها وأنا في التاسعة عشرة، في نوفمبر ١٩٦٠.

إهداء إلى

،،،،،،،،،،،،

* شقيقي / السيد البنداري الذي ساعد في ظهور الطبعة الأولى لهذه الرواية في نوفمبر عام ١٩٦٠.

* وابنة شقيقتي / هدى ميدان التي عثرت في فبراير عام ٢٠٠٦ على النسخة المفقودة الباقية من تلك الطبعة.

الفصل الأول



الفصل الأول

تحت السماء الحمراء القانية، وبين الفضاء الواسع الفسيح، وقف " وحيد " على ربوة عالية تشرف على المدينة الصغيرة مدينة طنطا، ليردد بصره بين الطبيعة النائمة، والحقول الساكنة الغارقة في الصمت والهدوء. ولفه نسيم الغروب الوادع النعس؛ فأحاله إلى نفس مرهفة خفاقة، وأشاع في روحه الأنس، وفي فؤاده الرضا!!

فجر هذا المشهد في نفسه ينابيع الحزن والألم، وفي أعماقه مواطن الحنان واللهفة؛ فأرسل مع النسيم زفراتٍ متلاحقة حارة، دلت على نفس موجوعة، وتفكير مبلبل حزين..

أطلق النفس على سجيتها عبر ذكريات الماضي، حيث مرآة الأمس الباكي، فألفى ثمة صوتًا يتجاوب بين الفضاء البعيد الفسيح، وهو يقترب منه قليلاً ... قليلاً إلى أن أصبح واضحًا، فأحس اضطرابًا يسري في أعماقه، وحنينًا يدب في أحشائه، إنه صوت أمه الحبيب الأليف، فشرد بذهنه حيث يلتقي بطيف الأم الراحلة ...، وحيث تلتقي روحه مع روح منبع الحنان المتدفق، فرأى صورتها وهي ساجية في فراشها تجود بنفسها، وهو واقف إلى جوارها، وشقيقته التي تصغره بثلاثة أعوام..

تذكر هذه الصورة التي مر عليها عشر سنوات، حينما كان يلهو مع أخته بين مزارع قريته وحقولها، وقد أخذا يتسابقان ويتحاوران في سعادة وغبطة، وهو يضاحك

شقيقته وهي تضاحكه، وقد انبعثت في نفسيهما منابع الفرح والبهجة..

وإذ بهما وقد راح يجري محاولاً اللحاق بها، يسمعان صوت خالتهما تناديهما، فعادا إلى حيث تقف، فرأى وجهها تبلله الدموع، واحمرت عيناها، وعلت وجهها صفرة خفيفة لم تخف على الصبي، الذي أطرق برأسه يخفي اضطرابه عن شقيقته نعمة الصغيرة، فهو لا يحب أن يشعرها بأن شيئًا يعكر سعادته ويقلق باله، وهو لا يحب أن يشعرها بما يعتمل في نفسه، وما يصطخب في قلبه، رغم مشاركتها السعادة والهناء..

إنه يذكر خالته هند وقد أخذت بهما إلى البيت الكبير، وهي صامتة لا تتكلم إلا من نشيج خافت ضعيف تحاول حبسه قدر جهدها، وأدخلتهما على أمهما الطريحة، لقد أخذ المرض بألمه اللاذع يشتد ويقوي عليها؛ فشعرت بأنها لن تبقى طويلاً، وأحست الأم باقتراب رسول المنية منها شيئًا فشيئًا، أحست به يحوم حولها؛ فهو يريد وديعة مكنونة في هذا الجسد الراقد، الذي تكاد فيه الحركة تخمد،

يريد الروح؛ فقد آن قبضها والصعود بها إلى سماء الرحمن..

رأت الأم حالتها؛ فأوعزت إلى مَن حولها بأن يأتوا به وشقيقته نعمة. أقبلا ووقفا بباب الحجرة صامتين، فحاولت الأم أن تهب من فراشها، فلم تستطع؛ فجريا إلى أمهما، وارتميا على صدرها الحنون الدافئ المليء بالحب؛ فبكت الأم طويلاً، وانتحب هو في صوت مسموع، وبلل صدرها بعبراته المنهملة التي أبكت الحاضرين..

إنه يذكر هذا جيدًا ولن ينساه، وكيف له النسيان؟ وأمه التي قالت وقت وقوفه بجوارها:

- "لا تبكِ؛ إنك صرت رجلا، لقد كنت أبغي البقاء بجوارك وأختك؛ حتى أكون سندًا لكما في الحياة".

انتفض انتفاضة عظيمة بعد أن رأى أمه تسبل جفنيها؛ فقال في خشية:

- "أمي، ستعيشين لأجلنا، حتى نقوى على أن نواجه الحياة؛ فنحن في حاجة إليك".

ثم يبكي حرقة، وينتحب ألمًا ورعبًا؛ فتفتح الأم عينيها في جهد، وتتابع حديثها بصوت متهدج وعبارات متقطعة:

- "وحيد، لا أدري كيف ستتجشم أعباء الحياة، وأختك كيف يكون مستقبلها ومصيرها؟ لقد كنت أتمنى أن يكون والدك بجواري ساعة موتي، ولكن أين نحن منه؟ لقد تركني وأنت صغير لا تفقه شيئًا، وأختك (نعمة) لم يكن قد مرّ على ولادتها إلا أيام قلائل، تركني ولم يراع ضعفي وسقمي، سامحه الله!!

مرت لحظات سكون، وتابعت الأم حديثها:

- "لقد كنتما لي خير سلوى وعزاء في وحدتي وآلامي، وأنت يا وحيد، أنا أعتبرك رجلاً فحافظ على أختك، واحنُ عليها. حاول أن تتصل بأبيك بالبحث عنه (ابحث عنه في كل مكان)، هذه وصيتي الأخيرة لك، ولا تفكر أنه قاسي القلب جامد ... لا ... إن نفسه طيبة، ولكنها الأيام هي التي حولته عنا، وحينما يراكما سيعود إلى رشده. لا تنس يا وحيد، لا تنس ما قلته لك!

سكتت الأم، وأخذت نفسًا عميقًا كله الراحة والاطمئنان، وأغمضت عينيها في استسلام، ورفت على شفتيها بسمة، وانطفأت فيها الحياة؛ فحدق الصغير في الجسد المسجى بنظرات زائغة تعِبة، ومس نفسه ذهول عميق..

مرت لحظات كأنها الدهر على الصبي؛ فأطلقت الأخت الصغيرة صرخة رعب وفزع؛ فانتبه إلى نفسه، وتخلص من ذهوله، وبدت له الحقيقة واضحة أمام ناظريه، وتكشف له الواقع منيرًا وضّاءً..

إذن قد فارقت الحياة، وفارقته هو وأخته، إذن أمه قد ذهبت تاركة إياهما ولن تعود! إذن أمه قد أصبحت جسدًا بلا روح، وهيكلاً بلا شعور أو إحساس..

اشتعلت في جـــوف الصبي ثورة بكاء وأنين، واختلط في صدره شعور بالظلم وشعور بالعذاب؛ فانفجر ينادي الأم الحبيبة والجسد المسجى، ويناجي الحنان الذاهب، والعطف الدارس، وراح يملأ المكان بكاء

ودموعًا، هو بكاء اليتيم الذي أحس بمرارة اليتم هذه الساعة، وهي دموع اليتيم الذي ذاق في هذه الساعة ألم الحرمان ولوعة الأسى.

✿✿✿

اجتازت هذه الخواطر رأس الفتي، وما زال صوت الأم يتجاوب في الفضاء الفسيح حتى ذوى، وما زال طيفها يدنو منه وينأى عنه، ثم يدنو وينأى حتى اختفى؛ فأحس بهول الفراغ؛ فتدفقت العبرات من مآقيه، وسالت فوق وجهه الحزين الكسير..

اختفى الكوكب الدامي وراء الأفق البعيد؛ فرأى الفتى بالظلام وقد انتشر حوله؛ فشعر في أعماقه بالوحشة والصمت والسكون، ثم يتلفت فجأة كأن هناك من يناديه من أسفل الربوة، ولكنه ما كاد يغادر مكانه حتى وجد أخته صاعدة إليه؛ فارتجف، وأحس كأن يدًا هصرت فؤاده، وما إن اقترب منها حتى ارتمت بين يديه في إعياء؛ فأحزنه هذا وحزّ في نفسه؛ حادثها في انزعاج:

- ما الذي أتي بك؟ إنك مريضة ولا تتحملين كل هذا، وما كان لك أن تأتي، لقد قلت لك: ألا تهتمي بي ودعيني وشأني.

- كيف أتركك وشأنك؟ إنك تعلم أنه ليس لي في هذه الحياة سواك.

- ولكنك مريضة وفي حاجة إلى الراحة والهدوء.

- لا معنى للراحة وأنت بعيد عني، ابق دائمًا بجواري. بعد أن تركتني تلفت حولي، فوجدت الفراغ يدثرني، والوحدة تداعب أفكاري، فانطويت على نفسي، ولكنني وجدتني في حاجة إليك، ثم اندفعت في الفضاء المترامي أنادي، حتى عثرت عليك، وكان قد أرهقني التعب، فاغفر لي إن كنت قد قطعت عليك حبل تفكيرك..

آلمه حديثها وأقلقه؛ فلقد كانت تتحدث وهي ترتجف، وجسدها يضطرب والدموع تتساقط من مقلتيها؛ فاهتز فؤاده خوفًا وهلعًا، وزلزل كيانه؛ فأمسك بيدها مشفقًا

يساعدها على المسير، واجتازا سويًا المزارع والحقول إلى المنزل النائي عن ضجيج المدينة وصخبها.

۞ ۞ ۞



الفصل الثاني



الفصل الثاني

أسدل الليل أستاره السود، مشيعًا في الوجود الظلمة والسكون، وأفاقت كائناته من غفلتها، وراحت تعلن عن نفسها بإرسال أصوات منكرة من حين إلى حين، هذه أصوات تتساب في الفضاء وكأنها النغم المضطرب الحزين، اعتادها وحيد منذ زمن بعيد، فهو ألفها بعد رحيل أمه؛ وأحب سماعها حين كان يختلف إلى الربوة العالية في الماضي..

ولكن الفتي من بعد هذه الساعة بدأ يكره هذا المكان، وبدأ أيضًا يحقد على نفسه وعلى مشاعره وكيف لا؟! فنعمة مريضة وتحمل نفسها التفكير الشاق من أجله، وهي في حاجة إلى إراحة جسدها الذي بدأ يدب فيه الضعف والخور، وكيف لا يكره هذا المكان؟! فهو موطن الأسى والحزن لأخته، التي لا تستطيع إخباره بما يخالجها؛ خشية إغضابه وبلبلة أفكاره..

إنها تحبه وتجله، وهو يحبها ويقدرها، هو يرى فيها صورة أمه الحبيبة النائية، ورفيقة الطفولة وأنيسة الصبا والشباب، وهي ترى فيه البر والحنان المحرومة منهما..

اجتاز الفتي وأخته طريقًا يؤدي إلى بيت "أنيق"، تحده حديقة مسوّرة بأشجار باسقة، أخذ النسيم الليلي يحركها؛ لتميل يمنة ويسرة، فيخيل للناظر أنها الأشباح تحت جنـــح الظلام، وإذا دلف المرء إلى داخل الحديقة قابلته رائحة الزهور والورود باختــلاف أشكالها وأنواعها..

ولو فحص المكان جيدًا فإنه سيرى سيدة تقدمت بها السن، واقفة في الشرفة تطل على الحديقة وقد استندت على حافتها بذراعيها، ووجهها يبدو عليه القلق والتوهم؛ فهي تنتظر الفتي (وحيد) كل يوم، ولا تغادر الشرفة حتى يئوب من مكانه، الذي يبعد عن البيت ميلاً أو أكثر، فهي اعتادت على ذلك من أول يوم هجروا فيه قريتهم إلى هذه المدينة الكبيرة، فلا تسأله أن لا يتأخر، ولا توجه له لومًا، ولا تأنيبًا؛ لأنها تشفق عليه، ولأنها تعرف أحزانه وآلامه..

ولكنها في هذه الليلة زاد اضطرابها، واشتدت هواجسها؛ لمغادرة الفتاة (نعمة) البيت هي الأخرى، دون أن تذكر لها مكانها، ومع مرور الوقت، ومع نشر الليل رداءه الأسود ساورتها المخاوف والأوهام، وظنت بالفتى والفتاة الظنون، فأحست وكأن يدًا قبضت على كبدها، فأخذت تذرع الشرفة جيئة وذهابًا وفي نفسها خوف، وفي قلبها خفقان شديد..

تصرم الوقت بطيئًا ثقيلاً؛ ولم تركن نفس المرأة إلى الراحة والاطمئنان إلا عندما رأت الفتى والفتاة مقبلين،

وكانت الفتاة بين يدي أخيها في حالة إعياء ومرض؛ فغادرت المكان في سرعة وخوف وخشية؛ وأخذت الفتاة بين أحضانها، وراحت تعانقهما وتمطرها بالقبلات ... وسالت من عينيها دمعتان لحظهما الفتى؛ فأوجع هذا المشهد فؤاده، وأحرق كبده، وذابت له نفسه رقة وحنانًا..

قضت (نعمة) تلك الليلة في ألم ونصب؛ وقد جلست بجوارها الخالة وزوجها الكهل، والفتى (وحيد) يمرضها، ويرمقونها في اهتمام، ويتابعون صدرها الذي يعلو وينخفض بطريقة أشاعت فيهم الانقباض والخوف..

أخذ الليل ينقضي ثقيلاً طويلاً، وتمر ساعاته في تثاؤب وبطء، فاشتد المرض بـــ(نعمة)، فصارت تتلوى ألمًا، وتئن أنينًا خافتًا يصدر من أعماق نفس تتقلب في إعياء لاذع، ووهن واضح..

وفجأة ... يسكن أنينها، وتهدأ حركتها، وتنتظم أنفاسها في خفوت، وتعلو وجهها صفرة مائلة إلى الزرقة، وتجف شفتاها المنطبقتان في مشهد هو أقرب إلى الموت..

يرنو الفتى إلى أخته فيقترب، وترتجف أوصاله وتنتفض روحه، ويقترب منها فاغرًا فاه، وتومئ إليه الخالة بالذهاب وتحادثه والغرفة يشملها صمت مخيف:

- وحيد إنها بخير؛ اذهب واسترح قليلاً؛ فالصبح يوشك على الظهور، وأنا هنا بجوارها، اذهب يجب أن تتركها تأخذ حظها من الراحة والنوم.

وتقدم زوجها الكهل منه قائلاً:

- أجل يجب أن ندعها، وكفاها ما احتملته من مشقة وجهد.

تلفت وحيد حائرًا، ثم سار بساقين متثاقلتين، وأمارات السهوم تبدو في عينيه، وعلامات القلق والهموم تفضحه بنبضات قلبه السريعة المتصلة، ومسحة من الأسى والحزن تكسو وجهه..

بعد رؤيته لأخته وهي على هذه الصفة من الألم اللاذع - شمله شعور مريب ... شعور الخائف المتوهم مما يخبئه له القدر، ومما يخفيه عنه القضاء، وانداح في رأسه كثير من الخواطر التي جعلته يتأفف ويهز رأسه أسفًا

وإذعانًا، وعرض في ذهنه كثير من المعاني المزعجة، التي طفقت شغله الشاغل وعلته الملحة ... وحاول أن يسلم نفسه إلى رسول الغفلة وسلطان النوم؛ عله ينسى خواطره، وعله ينأى عن شعوره الغامض المتصل، الذي يبعث في نفسه الريبة والضعف..

حاول ولكنه لم يستطع، ولم تركن نفسه إلى الغفلة، ولم تهجع إلى الراحة والنوم ... وراح الوقت يمضي وهو يتقلب في فراشه ملتاعًا أليمًا، إلى أن شارف الفجر على الظهور، وأوشك النهار أن يطارد جحافل الظلام، التي ضربت على عيون الناس فراحوا في ثبات عميق..

أحس (وحيد) في نفسه ضعفًا، وفي قواه خورًا، وفي قلبه هبوطًا شديدًا، وشعر بحاجة إلى الاطمئنان والراحة، ليذهب بهما خواطره السوداء التي سرت في وجوده، فجعلته محطم النفس محزون الفؤاد؛ فأخذت عيناه إغفاءة طويلة، رأى خلالها نفسه في بستان واسع ممتد الجوانب مترامي الأطراف، وكأنما ليس له بداية ولا نهاية، ويشق

البستان طريق شطرته شطرين، وعلى جانبي الطريق زهور وورود كثيرة متعددة الأشكال مختلفة الألوان، يخيل لمن يراها أنها طريق قد فرشت بالزهور والورود..

سار الفتى في هذه "الطريق" فرحًا بهيجًا لهذا المشهد الرائع البديع، المكثر في الروعة، المتغالي في الإبداع والحسن، يلفه هذا الأريج الفواح المنبعث من كل مكان في البستان الواسع..

سار الفتى وفي نفسه سعادة، وفي قلبه بهجة، وفي أعماقه صفاء، ولكن إذ به يجد أنه منجذب إلى شيء ما، منساق بدون إرادته، وكأن شيئًا يحركه ويسيّره، فلا يستطيع أن يتحكم في نفسه، ولا يستطيع أن يأوّل أو يفهم سر هذا الاندفاع وهذا السير..

ثم يرى أنه توقف عند أرض فسيحة تشملها الخضرة والزهور، وكذلك يشملها الصمت والوحشة، ثم يبصر أمامه جدول ماء صغيرًا، يسمع فيه خرير المياه، وهي تنحدر انحدارًا خفيفًا، أشبه بالحفيف لثوب غادة تمشي

في تمايل وخيلاء، فعجب الفتى وتعجب؛ ما الذي دعاه إلى هذا المكان؟ ولَمْ يطل عجبه؛ فقد سمع صوتًا يناديه، حبيبًا إلى قلبه أثيرًا إلى فؤاده. "إذن هذا الصوت هو الذي دعاني، وهذا النداء هو الذي حركني وسيرني"..

يضطرب الفتى، ويرتجف؛ فهذا الصوت هو صوت أخته الأليف الشقيق، إنه يراها وقد احتواها حزن هادئ متعالٍ في هدوئه وديع متمادٍ في وداعته؛ فأضفى هذا الحزن عليها سكينة مؤثرة؛ تملأ النفس أسى وإشفاقًا، وتشيع في الكيان رهبة وجلالاً، ولكن ما بالي أراها كئيبة حزينة تنتحب وتتوسل، إنها تتوسل إليه وتناديه، إنها في حاجة ملحّة إلى معونته، فصاح متوترًا:

- هدئي من روعك، وامسكي دموعك؛ أنا آتٍ إليك بعد أن أعبر هذا المجرى المائي الصغير.

ولكنه لم يستطع أن ينقل قدميه، فقد شلتا، ويسقط إثر ذلك، فيحاول أن ينهض ليصل إليها، ولكنه لم يقدر؛ فلقد أحس أن نصفه الأسفل معطل عن الحركة؛ فمد إليها

يده اليمنى، ولكنها تتجمد وتسقط كذلك، ليس فيها حركة أو شعور؛ فيناديها؛ ليزيل عنها خوفها وكآبتها، ولكن صوته يحتبس، ولسانه عن الكلام يتوقف؛ فيبكي لبكائها، ويبكي لما ألمَّ به، فأقعده عن تقديم يد المعونة والأمل..

هبّ من نومه مذعورًا؛ ليرى أنه كان في حلم عميق ورؤيا طويلة غريبة، وألفى أشعة الشمس تخترق زجاج النافذة، فنهض من فراشه في خمول، وغادر الحجرة، وسار إلى غرفتها، وقد زاع في نفسه بعض من قلق وشيء من خوف، وفتح الباب خافق القلب، ولكنه أبصرها ترفّ على شفتيها بسمة واسعة مطمئنة؛ فارتاح لبسمتها التي روحت عن فؤاده المكروب وروحه الملتاعة. وجلس بجانبها على الفراش يداعبها، ويحادثها حديثًا أشجاها، وأزال عنها الألم والملل.

۞ ۞ ۞



الفصل الثالث



الفصل الثالث

قالت وفاء:

- لم تحضر أمس، نسيت موعدنا، ما الذي منعك عن المجيء؟!!
- أنا في غـــاية الأســـف؛ فأرجـــو أن تقبلي أسفي وتعذرينني.
- لا، لن أقبل أسفك وعذرك؛ فلا تسل عما لحق نفسي من قلق عليك وخشية على نفسي،لقد تواعدنا على اللقاء بعد

مغيب الشمس. وانتظرتك ... وانتظرتك إلى أن سكن الليل، وإلى أن هدأ الكون؛ فأدركت أن مجيئك صار محالاً؛ فغادرت مكان اللقاء، وحيدة يطاردني الخوف والرهبة، فأخبرني ما الذي دعاك إلى التخلف عن الحضور؟ أخبرني..

ثم انفجرت باكية؛ لمبلغ ما يتجاوب فيها من حزن، ولعظيم ما يتأرجح في أعماقها من لوعة وحب.

فحول الفتى وجهه عنها، وهتف منفعلاً:

– إنها نعمة – شقيقتي!!

– كيف؟

– لقد قابلتني تَعِبة، فرأيْتُ أن لا بد أن آتي بها إلى المنزل، ثم أذهب إلى حيث أنت؛ ولكني ما كدت أصل بها حتى زاد المرض عليها، وحتى كانت ليلة الأمس ليلة ليلاء؛ فشغلني هذا عن الحضور إليك..

لم يكد وحيد يصل بكلامه إلى هنا، حتى تذكر نعمة في هذه الرؤيا المخيفة الطويلة، التي لم يطمسها من خياله مرور الوقت، ولا انشغال النفس بشئون الحياة..

كذلك لم يكد يستقر في فؤاده منظرها، وهي تتوسل إليه وتناديه؛ حتى اختنق صوته بالبكاء؛ فجعل يتحكم في نفسه في جهد بالغ، أمام وفاء، ولكنه لم يقْوَ؛ فتدفقت الدموع من عينيه صامتة خرساء ... وتألمت الفتاة لمنظره، وكاد قلبها ينخلع من بين ضلوعها ... فمسحت بيدها دموع تكدّره ... وأخذتها نوبة حماس؛ فطفقت تمطر يديه ووجهه بقبلاتها المتصلة ... وكأنها ترجوه أن يغفر لها، وتستعطفه أن يصفح عن تهوّرها، الذي كان سببًا في تأذي نفسه وترويع قلبه بالخواطر والذكريات..

إنها فتاته في الثامنة عشرة سنة، خفيفة الظل، مرحة الروح، حلوة النفس، وحيدة أبويها، ومعقد حلمهما الدائم، وأملهما الطويل العريض في الحياة؛ فأحباها وبرا بها، وأشفقا عليها، بل تركا لها الحبل على امتداده؛ فلا تسأل أين تمضي وقتها؟ أو أين تأخذ طريقها وسبيلها في مضطرب الحياة ومعتركها؛ فكانت أن دأبت على السهر

خارجًا، واتبعت طريقًا محفوفة بالمخاطر، محاطة بالأشواك..

ولم تنظر إلى الحياة نظرة متوازنة، بل نظرت إليها نظرة المستيقنة من نفسها، والواثقة بكيانها وشخصيتها، وأني ينفعها ذلك الوثوق، وهذا اليقين وهي تتبع نداء الهوى وهتاف الغرام؟

أهل يشفع لها وثوقها ويقينها عندما تزل القدم؛ فتكون النهاية الأليمة، ويسدل الستار الأسود الموجع على بكاء خيبة، وأنين جزع، ونواح حسرة ويأس؟!!

وفجأة تنبهت من غفلتها، وصرخ فيها عقلها، وتوسلت إليها دقات قلبها، وحلقت روحها فرحى صادقة، وذغرد كيانها نشوة، وخفق فؤادها خفقانًا لذيذًا لهذا الطارق الجديد الذي اقتحم عليها حياتها ، ففتح قلبها الغامض المظلم – دون إذن منها – فأحاله إلى نور وصفاء، فبدلها وحولها، وأشعل في وجودها شعورًا بالخطأ في حق نفسها، وشعوراً

بالأسف ينفخ فيها روح الطيبة والحب، حيث السعادة الأبدية والهدوء المقدس الخالد..

أحبت هذا الجار منذ أول يوم أتت فيه إلى جواره مع والديها ... أحبته بكل ما يكمن فيها من عواطف رقيقة ومشاعر فياضة؛ فهو الذي انتشلها من حياتها المملة السالفة، وأغاثها من سآمتها الموحشة، حيث لبى نداء القلب، وأجاب توسل الروح الهائمة..

أحبها هو لمصارحتها إياه في صدق وإخلاص، لما كانت عليه في الماضي ... لقد رأى فيها فتاة شقية تعيسة، أساء أبواها تربيتها وتنشئتها، بأن تركاها حسب هواها وإرادتها، حاسبين أنهما قد برا بها وحنوا عليها ... أحبها وأشفق عليها من ماضيها؛ وأحبته هي وأشفقت عليه لانطوائه على نفسه وشروده الدائم، فملأ الدنيا بالأنس والآمال والأحلام الوردية..

افترق (وحيد) و(وفاء)، وغادرا مكان لقائهما بعد أن ظلا وقتًا طويلاً يتسامران، ويتناجيان مناجاة ألهبت

حبهما، وأججت مشاعرهما ... دلفت هي إلى داخل منزلها في خفة ورشاقة ... ودخل هو الآخر في خطوات سريعة، والقلق قد انبعث فيه فجأة عندما سمع جلبة داخل المنزل وحركات لم يعتدها، ودثره انفعال عندما رأى خالته تغدو وتجيء ووجها تعلوه صفرة. ولحضوره توقفت متنهدة، وكأن وجوده فجأة قد طمأن قلبها، وسرى عنها بعض خوفها..

وقالت له وصوتها الحزين، يردد في أذنيه صدى أليمًا:

- لقد ثقل المرض عليها بعد خروجك، وحاولت معها، ولكنني لم أر مفرًا من استحضار طبيب، وهو عندها الآن يفحصها..

لم تسمع منه كلامًا؛ فقد أسرع إلى حجرة نعمة؛ وذهبت هي في أثره، فرآها تتألم، بينما فرغ الطبيب من فحصها، ووقف يهمس في أذن زوج خالته، الذي انقبضت أسارير وجهه وارتجف رجفة لم تخف على الفتى؛ فآثر

الصمت، ولم يحاول أن يسأل عن سر هذا الانقباض، ولكنه رأى الطبيب يخرج بملامح يائسة، وكأنه قائد خسر معركة أو انهزم في موقعة، ووجد الزوج الكهل يهمس في أذن زوجته، فبكت لتوّها؛ لم تتحمل شدة ما سمعت من كلام..

وأخذ الزوجان يرمقان الفتى بنظرات ملؤها التأثر والاستسلام؛ فاهتز كيانه، وشعر كأن يدًا تريد نزع قلبه من بين ضلوعه انتزاعًا؛ فتلفت إلى أخته المتألمة في أسى، وإلى الخالة وزوجها في استفهام يستعلمهما سر وجومهما، ومعنى همسهما. ولكنهما بعدا عن استفهاماته، وغادرا الحجرة، تاركين إياه وأخته في هذا السكون الموحش، إلا من أنين نفس موجوعة، وفي تلك الحجرة الصامتة إلا من صوت أليم ترسله الفتاة من لحظة إلى أخرى، إنه صوت يبعث في جو الغرفة الجزع النافذ إلى شغاف القلب فيخنقه، كما ينبعث فيها أنين يشيع في محيطها اليأس الآخذ في النفس؛ فيحزنها ويدميها!!

انطلق الوقت يعدو، وانقضى مفعول المسكن الذي أعطاه الطبيب لــ(نعمة)، فازداد تألمها وعذابها، وعلا

أنينها وشاع، ثم ما لبث أن تبدل إلى صياح، ثم لبث أن تحول إلى توسل ورجاء، فلم يقدر (وحيد) على رؤيتها وهي على تلك الشاكلة، ولم يتحمل مشاهدتها وهي تتعذب عذابًا يصدع له الكبد، وتزوي بسببه النفس؛ فخرج من وسط العذاب والبكاء والأنين قاصدًا النَّأْي عن البيت لفترة، ولكنه ما كاد يغادر الغرفة حتى رأى الخالة وزوجها واقفين ينظر أحدهما إلى الآخر في يأس وأسى، فدنا منهما وثورة حنق وغيظ تغلي في نفسه..

وقال:

– أنتما تخفيان شيئًا عني، ولا تريدان إعلامي به ... تكلما إذن، أو فليتكلم أحدكما، بالله لا تزيدان في ألمي عذابي.

فقالت الخالة حيرى:

– ليس .. ليس ثمة شيء يا ولدي نخفيه عنك.

– كلا، لست أصدق، إن في نفسك سرًا تفضحه كلماتك القلقة المتعثرة.

فقال الزوج الكهل وفي نبرات صوته الجلال:

- وحيد، إنني لأرى فيك رجلاً ناضجًا يقدر على تحمل خطوب الدهر ونوائبه، ومع كل هذا كنت أكره إخبارك بما صدمنا به اليوم، ولكنك ما دمت تصر أن تعرف ما حدث، فاعلم يا ولدي أن (نعمة) مصابة بمرض خطير "سرطان".

وتوقف الرجل، وتطلع من النافذة على الفضاء الأخضر المترامي أمامه شاردًا ذاهلاً، وكأنه يستعلم غيب السماء، ثم همس همسًا مسموعًا:

- "سرطان ... سرطان" ولكنها سوف تعيش رغم ذلك.

وجم الفتى، وإلى الوراء تراجع في انزعاج، وجلس مسندًا رأسه إلى راحتيه، وفي جسده تفشى ارتخاء وضعف، وهجست نفسه، وعرضت برأسه خطرات عنيفة، مسحت على عينيه، فغشيته غشية قصيرة، تمثلت له خلالها رؤياه لشقيقته بالأمس في نومه، وهي تتوسل إليه، وتناديه أن ينقذها وينجيها؛ فهب واقفًا ملتاعًا، وأجال بصره في المكان، فرأى الرجل الكهل يمسح دمعة لم يتحكم فيها،

وخالته أيضًا تنتحب في خفوت وكبت ... فأطرق مذعنًا، وكأنما قد كلّ عقله وأقفر ذهنه، ولم يتفوه بشيء إلا بتلك الكلمات التي بها جادت نفسه:

- لا أحب هذا الصمت الطويل، يجب أن نفعل شيئًا يخفف عنها، أشيرا عليّ.

فدنا الكهل منه قليلاً، ثم قال:

- لا يحق لنا أن نيأس ونستسلم، فاذهب بهذه "الروشتة" إلى الصيدلية، وأحضر الدواء، عساه يخفف عنها.

قالت الخالة الدامعة، وكأنما مستها "هستريا":

- عجبًا ... ! لقد كدنا ننسى ما قاله الطبيب، اذهب وأحضر ما أمر به؛ فإنه بلا شك سيأتي بالشفاء العاجل القريب.

مد الفتى الكسير يده، وتلقف بكفه "الروشتة"، وقبض عليها بقوة ولهفة، وكأنما يمسك بحياة شقيقته؛ خوفًا من أن تفلت من يده وتضيع؛ فيكون الموت والفناء..

لم يفكر في حكمة السماء العادلة، التي بعثت فينا شريعتها الأبدية ودستورها الخالد الباقي، وإنما رأى أن (نعمة) لا يسري عليها قانون السماء، واستبعد فكرة موتها، فليس لها أن تذهب مثل البشر، فهي يجب أن تعيش، وتحيا له ولمن يحبونها..

- إن هذا الدواء الذي سآتي به سيشفيها، وينتصر على الموت الذي يداعبها.

ترك البيت والساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً، وعبر الحديقة الكبيرة بأشجارها المهيبة، وما إن مر بالبيت المجاور حتى سمع خفيف ثوب بين الأشجار الصغيرة والورود الدقيقة، فلم يستوقفه هذا، وظل ماشيًا في طريقه، وإذ به يسمع صوتها تناديه بصوت لا يكاد يسمع، ولا يكاد يبين، إنه صوت وفاء، فتوقف حائرًا حتى لحقت به، وقالت مرتبكة، وصدرها يعلو وينخفض:

- إلى أين ؟ ألم تسمعني؟

- سمعت.

- يا لجفائك، كأنني لم أعد شيئًا في نظرك حتى تسمعني ولا تجيبني!
- أنا علي عجل؛ فنعمة مريضة تتلوى ألمًا، ولا بد لي من صرف هذا الدواء ... فماذا تريدين؟ تكلمي!
- لست أدري ماذا أقول أمام هذه الثورة التي تشتعل في صدرك.

فابتدرها قائلاً:

- إذن دعيني أذهب.

فتعلقت به وقالت في تذرع:

- كلا ... لا يحق لك أن تذهب وتتركني.

فقال ونفسه بدأت تهدأ:

- سألقاك بعد عودتي يا وفاء .. ألم نكن معًا منذ ساعات قليلة.
- لكن نفسي لم تسكن منذ افتراقنا، ووجدتي في شوق إلى رؤياك والتحدث إليك.

أحس الفتى بالتصاقها به وجذبها إياه إليه، وبضغط ذراعيها الملتفتين حوله في قوة، فنسي نفسه، ونسي حزنه في لحظة، وشرد وجوده وانتفض روحه، فأحس بها في متاهة تتوالد فيها الأشجان والعواطف، وسرت فيه نشوة مسكرة امتصت برودة جسده، وأحالتها إلى حرارة ملتهبة، أذابت ثلوج الكآبة والعبوس، ثم أحس بأنفاسها الساخنة تلفح صفحة وجهه؛ فرنا إليها بقلب واجف تحت ظلمة الليل الحالكة..

واندفعت الفتاة تهمس إليه همسًا أذاب نفسه رقة وحبًا، فأنصت إليها بمجامع كيانه، وشخصت عيناها إلى عينيه في وَلَهٍ، وقلبه يتابع دقات قلبها؛ فهام روحه في عالم رحب أخّاذ، ورأى نفسه لشدة ما تحسه- من روعة ورضا- تتوثب وكأنها تريد أن تقول شعرًا؛ عساه ينفث عما يخالجها في هذه الساعة..

لم يكد يهمس إليها حتى سمع صرخة مفزعة؛ فبهت، وشعر كأن يدًا قبضت على أنفاسه، فأصاخ بسمعه

علّ ما سمعه يكون وهمًا، ولكن الصراخ يتتابع، ويتبدل إلى عويل ومناداة لشخص عزيز قد ذهب ومات..

دخل (وحيد) المنزل وقشعريرة هائلة ألمت بجسده وعاصفة من الرهبة تعصف بصدره، فرأى مشهدًا سمره في مكانه في منتصف حجرة نعمة الحبيبة، فارقت نعمة الحياة، وعلى فمها بسمة تسليم بحكم القضاء فيها..

ويشاهد وحيد ما يراه مبهور الأنفاس زائغ العينين، موزع النفس، وكأنما طُعِن في أغوار قلبه، وبح صوته؛ فلم يقو على الكلام، وخارت قواه، فلم يستطع الوقوف؛ فاستند إلى مقعد بجواره..

خيم على المكان للحظات سكون حزين، مزقه صرخة الفتى (وحيد) المفجوع؛ حيث جثى بجانب (نعمة) يناديها فلا تلبي نداءه، ويحدثها فلا يسمع جوابًا لحديثه، وتلفت حوله حائرًا مستفهمًا، فرأى المنزل يغص بجيران راحوا يرمقونه صامتين، وعلامات الحزن تبدو على وجوههم..

انطلق وكأنما مسه شيء من جنون، انطلق يلقى حديثًا غريبًا :

– إن الحياة كانت تدب فيها منذ حين، فلم انطفأت وهمدت؟ وصوتها كان يتردد في أذني عذبًا، فما حقيقة فنائه إلى الأبد؟! لِمَ هذه البرودة التي تتفشى فيها؟ وما مبعثها؟ أأستطيع أن أفهم أنه النأي والفراق إلى العالم البعيد؟ كلا كلا..

خرج من المنزل باكيًا، فرأى الطبيعة واجمة خرساء، فقال، وصوته يخرج من جسده:

– " لا أكاد أصدق ما أرى، ولا أثق بما أسمع".

وصدق وحيد بعد طلوع شمس الغد، وأتاه جواب حديثه بعد أن تصدر المشيعين لتشييع (نعمة) إلى المقابر، حيث احتواها مقرها الأخير.

۞ ۞ ۞

الفصل الرابع

الفصل الرابع

منذ تلك الليلة المشئومة أحس (وحيد) حزنًا كامنًا يفتت كبده، ويمزق أمعاءه، ويقطع أوصاله، وخيّل إليه أن العالم الكبير ينبع حزنًا، ويفيض حوله بأمواج تطن في أذنيه، وأن السماء الصافية تبكي كمدًا وتألمًا، وأن الفضاء الفسيح ليس فضاء أنيسًا يشرد فيه بصره مطمئنًا، ويرجع فيه صوته مرتاحًا هادئًا، بل كان يزدحم ويضطرب، وأن النسيم الفواح الأريج الذي يملأ صدره منه يزيد نفسه القلقة ضرامًا ..

فقد إيمانه بنفسه والناس، وانعدمت فيه الثقة بمن يسكن هذا المجتمع الكبير، وتبدل إلى إنسان غريب الأطوار، بعيد كلّ البعد عن منطق الحياة، أضحى مملوءًا بالغيظ، مفعمًا بالكره وبالرغبة في الانتقام من هذا الوجود الذي ظلمه في أنيسة الطفولة، ورفيقة الصبا والشباب، لقد صب اللوم والتأنيب على وفاء التي أقعدته عن الإتيان بالدواء الذي كان يرى، بل يعتقد فيه شفاء أخته:

- "أنت السبب؛ ولولاك لما ماتت، إنك شريرة آثمة، ابتعدي عني لا أريد رؤيتك".

هكذا كان يقول لها حين تريد الاقتراب منه، والتحدث إليه، والتخفيف عما أصابه، وكانت هي لا تسأم، ولا تمل، ولكن تتألم في صمت، وتحاول معه مرة بعد أخرى، وهو يتمادى في نأيه عنها، ويغالي في تعذيبها وتذويب حشاشتها، ويكثر في إشعارها بالذلة والمهانة..

أخذ (وحيد) يقسو عليها، ويحقد عليها حقدًا مريرًا، ويكرها كرهًا أسود ملأ نفسه؛ حتى فاض مع توالى الأيام،

وتسرب إلى عامة فتيات المجتمع، وتعدى إليهن جميعًا؛ فغمرهن بكرهه الدامي العميق، وتطور كرهه وحقده؛ حتى أضحيا مشكلة ضخمة، يسهم فيها بكل ما لديه من كبرياء، ودوامة هائلة يسبح فيها بكل ما يملك من قوة وثبات..

- "الكره لهن مبدئي، والحقد عليهن واقعي، وحقيقتي وفلسفتي في هذه الحياة، فهن سبلنني أختي، وانتزعن مني سميري وأليفي، ولست أبالي بما يحدث لهن!

أجل، لقد غدا هذا مبدأه، وتلك حقيقته وفلسفته، وذلك واقعه وهدفه؛ بعد نأي (نعمة) عنه، فصار إنسانًا جامد الحس بارد الشعور غليظ القلب متحجر العاطفة..

فهو يرى أن ما من فتاة تعيش في المجتمع إلا وقد سلبت أخته حياتها لتسعد هي. وما من فتاة تستنشق الهواء، وتملأ صدرها منه إلا وقد استولت على نصيب أخته وأنيسة حياته الذاهبة، وما من فتاة تمرح وتضحك، وتقضي أوقاتها في أنس وطرب إلا وقد انتزعت حظ أخته من هذا الضحك، وتلك الأوقات الهانئة..

ولا يزال الفتى في إصراره هذا، واعتقاده ذاك، بل "شذوذه" حتى طفقت حياته جحيمًا لا يطاق، ولهيبًا متأججًا لا يقوى إنسان على الدنوّ منه والإقبال عليه ..

انطلق يبتعد عن الناس؛ لتسكن نفسه، ويهدأ حقده، وينسى كرهه، ويرى بعين الخيال (نعمة) الرقيقة، ويعيش مع طيفها ساعات مبتهجًا سعيدًا؛ فكان يختلف إلى الأمكنة النائية عن الحياة والناس..

وأمست الأيام تتصرم والشهور تنقضي، وما كانت الأيام ولا الشهور تهدئ من ثورته، وما كان بُعْده عن الناس يخفف من آلامه وأوجاعه، ولا يُزيل من نفسه الكره، ولا من قلبه الموجدة والحقد، بل كان كر الأيام ومرور الشهور يزيد الجرح نتحًا، ويجعله يغور ويتسع؛ فيكثر من ألمه، ويترك في نفسه الصرامة والشدة..

۞ ۞ ۞

انبلج نور الصبح، ونشرت الشمس أشعتها الخافتة الواهية التي ألفها الناس، وانتعشوا لما تبعثه فيهم من دفء،

وانتشوا لما تضفيه على الحياة من قناعة واطمئنان؛ فالخريف قد ولَّى، والشتاء في أوائل أيام ولادته، ولا يلبث أن يتعملق بعواصفه المريرة وبرودته القاسية ..

في هذا اليوم من سبتمبر بكّر وحيد ليستقبل عامه الدراسي الجديد، وقام إلى الشرفة تعبًا كليلاً، ثم فتحها ووقف يستقبل هواء الصبح البارد؛ عساه يزيل من نفسه ما بقي من آثار التعب، ولكنه لم يزده إلا تبرمًا من الحياة، وقلقًا من الماضي الذي لا ينفك عالقًا بذهنه، ومتمكنًا من فؤاده وكيانه؛ فارتد من الحجرة منفعلاً، وشرع في ارتداء ملابسه..

ولم تكد تنتثر دقائق، حتى كان في كامل هيئته، وتهيأ للخروج من الحجرة ولكنه عندما رأى نفسه في المرآة، جعل يتأمل صورته المنعكسة، فرأى شحوبًا في وجهه، وذبولاً في شفتيه، واحمرارًا في عينيه، وتهدلاً في جسده الذي كان يحسده عليه الناس؛ فأغمض مقلتيه للحظة، ثم فتحها ليرى وكأن الصورة المنعكسة تقول له بلهجة متوسلة:

- " إنك تقسو عليّ ... إنك تقسو عليّ، أما من غاية لهذا العذاب الذي ترزح تحته نفسي؟ أما من نهاية لهذا الحقد المرير، وذلك الكره اللاذع اللذين تأذّت بهما روحي؟ أشفق عليّ .... أشفق عليّ !!

حول (وحيد) بصره بصرامة وسخرية، وترك المرآة، ومشى إلى باب الحجرة، فوجد خالته بالباب واقفة، ترقبه بعيون واهنة رحيمة، فلما وصل إليها وقف، وقال في خفة مصطنعة:

- صباح الخير يا خالتي.
- صباح النور يا ولدي، أراك انتهيت من إعداد نفسك.
- نعم ، لقد انتهيت تقريبًا.
- إذن هلم إلى طعام الإفطار...

تناول قطعة خبز وقطعة جبن، ورشف من كوب الشاي رشفتين، ثم قال مستأذنًا الخالة وزوجها:

- آن لي أن أذهب.

فهب الكهل واقفًا، وقال:

- نعم، عام سعيد يا بني.

فوجم الفتى وغمغم:

- سعيد؟ نعم، نعم..

فقامت الخالة إليه، وعانقته في حنان، ثم قبلته قائلة:

- اذهب في رعاية الله يا ولدي.

في عينيها نظر (وحيد)، فوجد الدموع تترقرق فيهما؛ فأحس في فؤاده بوخزة وبذكرى تئوب، فخرج من البيت مسرعًا؛ ليخفي الدموع المنبثقة منه في استرسال، واندفع يقطع شوارع المدينة، والهواجس تتقاذف في رأسه، والخواطر المشحونة بالقلق تتغلغل في كيانه، انطلق مسرعًا الخطا أسوان كئيبًا، لا يتلفت شمالاً ولا يمينًا، ينظر أمامه سارحًا، وكأنه يتطلع إلى إنسان معين أو موضع خاص، لا يشعر بالناس الذين يهمسون في شأن ذلك الفتى الوسيم، الواسع الخطا الشاحب الوجه الحاد النظرات..

في شارع سعيد، وعند مبنى "المعهد التجاري العالي" وقف (وحيد) يطرد هواجسه، ويئد خواطره، ويدفن

قلقه، ثم صار إلى الداخل، وما كاد يجتاز الباب الخارجي، حتى رأى ثُلّة من زملائه الطلبة في الفناء، وقد اندمجوا في الحديث، وبأصوات عالية يتناقشون، لا تلبث أن تنخفض، ثم لا تلبث أن ترتفع..

فأخذ الفتى يرقى الدرجات الأربع غير ناظر إليهم، ولكنهم ما إن رأوه حتى تسابقوا صائحين به، وأساريرهم متهللة فرحة لرؤياه، ولكنه نظر إليهم ممتعضًا منقبضًا، وظل في طريقه، فوقفوا لتوّهم، وأخذهم العجب، وتساءلوا مستفهمين، ثم رنوا إلى أحدهم يستعلمونه، ماذا أصاب صديقهم (وحيد) حتى يبعد عنهم هكذا؟!

- كمال، إنك صديقه، فهل حدثتنا عن سر تحوله؟

فقال كمال وهو يتطلع إلى السماء متأثرًا:

- لقد نسيت أن أخبركم، وما أنساني إلا مناقشتكم. إن (وحيد) في مشكلة عويصة، لقد ماتت شقيقته نعمة...

ثم أخذ يسرد القصة عليهم، ويحكي عن سر نقمته على فتيات المدينة، ويكثر القول عن حنقه على كل من

يراه أمامه سعيدًا، ويغالي في تصويره حالته، حيث بَعُد عن الحياة والناس، ويبالغ أيضًا في تصوير الظلام الذي يتخبط فيه، والقلق الذي يخرجه أحيانًا من حيز العقل إلى شبه مجنون يناجي الطبيعة، فهي ملجأه وملاذه، تسمع ولا تجيب، تبصر ولا تتكلم..

ثم توقف هنيهة، وأردف قائلا:

- لقد حاولت كثيرًا خلال تلك الأيام الطويلة التي مرت به، أن أنتزعه من وحدته وآلامه، وأن أدفعه إلى طريق النور، ولكنه كان يأبى محاولاتي، ويرفض أن يرى النور، فهو يرى في ذلك الظلام خير أنيس، وأسمى صديق، يقدر أن يبثه أحزانه وكلومه. إنني لحزين من أجل هذا الصديق العزيز..

ثم لاذ (كمال) بالصمت، وتأثر الجمع بقوله، واختلجت نفوسهم، واضطربت في صدورهم قلوبُهم، ومر بهم وقت صامت قصير، فبدده أحدهم بقوله ساهمًا:

- ما أشد بؤسه، إنني حزنت لسماعي فقط، فكيف به هو!

فقال آخر:

- يحق علينا أن نقدم له عزاءنا ... هلموا بنا!!

سار الزملاء، يبحثون عن (وحيد)، فألفوه في شرفة قاعة المحاضرات، وقد أسند رأسه إلى راحتيه، فلم يحبوا أن يقطعوا عليه تفكيره، فوقفوا ينتظرون، ولكنه سمع حركة وراءه وهمهمة تصل أذنيه؛ فتنبه وحوّل وجهه إليهم، فتقدموا إليه وأحاطوا به، ثم قال أحدهم:

- وحيد، عام سعيد، وتمنياتنا لك ببهجة دائمة، لك تعازينا، فلم نكن نعلم قبل اليوم.

وقال متألما؛ فالجرح وخزه فجأة:

- أشكر لكم هذا الشعور الطيب.

وانضم الفتى إليهم، ولكنه لم يشترك في موضوعات أحاديثهم إلا لمامًا، حتى أعلن بدء الدروس؛ فتفرق الجميع!

ولم يكد ينقضي بعض اليوم حتى ذاع حديث (كمال) بين عامة الطلبة، وتناقلوه فيما بينهم، وراحوا يبدون آراءهم، ويبدي كل منهم وجهة نظره، وكأنهم يتناقشون في

محاضرة ألقيت اليوم، أو موضوع علمي يتطلب منهم هذا الاهتمام الكبير..

۞ ۞ ۞

أخذت الأيام تمضي، ولا حديث للفتية الطلبة إلا قصة الفتى ومشكلته. وكان (وحيد) خلال هذه الأيام يراهم يرقبونه في إشفاق ورحمة، ويشاهدهم يتكلمون، فلا يكاد يقترب منهم، حتى يتحول كلامهم إلى همس، ويلوذون بالصمت فجأة، فتشل أفكاره، وتضيق نفسه، ويحس بجراحه تنزف دمًا، فيوجعه فؤاده، وتبكيه أحزانه..

حين كان (كمال) و(وحيد) عائدين من المعهد، ويقطعان شارع البحر ليتجه كل منهما إلى الشارع الذي يقطن فيه – توقف (وحيد) فجأة، ودنا من صديقه، وحادثه بلهجة ثائرة حادة:

– لِمَ أراهم ينظرون إليّ هكذا؟

– إنك واهم يا صديقي، إنهم لا يضمرون لك شيئًا في أنفسهم.

– لا، إنهم أشرار، لا أحب هذه النظرة منهم.

– ليسوا كما قلت، بل إنك مخطئ، وهم إنما يواسونك.

– كلا، دعوني وشأني، لا أريد أحدًا يواسيني، إنني الحزين وليس هم، وأنا المفجوع ولا أحد غيري، وأنا المكلوم ولا أحب مَن يتدخل في شأني، ما أراه أمامي نفاق، وما أسمعه منكم نفاق، وما أحسه نفاق، الكل منافق، فدعوني!

– لسنا كما تظن يا أخي، وكما يصور لك حزنك.

ثم اقترب منه، وقال بلهجة متوسلة:

– إنك في حاجة إلى راحة، بل في حاجة إلى شيء يهدئ أعصابك، ويطمس من رأسك واقعك المخطئ الذي أراك متشبثًا به، شيء يزيل منك تلك النظرية الجوفاء التي لا تزيدك إلا هزالاً وسقمًا! دع ما فات يا أخي وانظر أمامك.

فقاطعه الفتي:

– أتريدني أن أنسى ما مضى، لا أقدر، لا أقدر على النسيان، ففيه أجمل ذكريات مع رفيقة الطفولة والصبا والشباب!

- لا أريد منك ذلك، بل أحب أن تنظر إلى الأمام، ولا ترجع إلى الوراء، دع ما مضى وتطلع إلى الحاضر وعش فيه؛ ستجد الحياة الحقة، والسعادة الخالصة، ستجد نفسك في مرآة الماضي مكتئبًا حزينًا، إذا نظرت وراءك، وسترى نفسك في مرآة الحاضر مغتبطًا بهيجًا لو نظرت أمامك. إن حقدك وكرهك - يا أخي - لن يجدياك في شيء، إنهما يزيدان من عذابك وتوجعك.
- لن أقتنع بقولك؛ فإنني لن أدع الماضي، وهو كل ما أملك، ولن أتجرد من شعوري نحو هؤلاء الفتيات فهن سلبنني نعمة؟!

فقال (كمال) وهو يكاد ينفجر:

- عجبي لقولك، إنهن لم يسلبنك شيئًا، بل هي سنة الوجود يا صديقي، حياة وفناء، ثم حياة مرة أخرى، وما نحن إلا صورة متجددة لأجيال دارسة فانية...

توقف (كمال) عن حديثه فجأة، عندما رأى (صديقه) ينظر إليه فاغرًا فاهه، وكأنما آب من رحلة جاس في

أثنائها أماكن مخيفة مليئة بالخطوب والأحداث، فتابع قائلاً وعلى شفتيه بسمة منتصرة:

– آن لنا أن نفترق يا صديقي، وينبغي لك أن تفكر فيما قلته لك.

تركه (وحيد) دون أن يلتفت إليه، وقصد شارع "تفرتيتي"؛ فشيّعه في حنان نابع من نفسه الحزينة، والتمس هو الآخر الطريق إلى منزله بشارع الفاتح.

وصل (وحيد) إلى منزله ثائر الخواطر، واتجه إلى غرفته، وهو يحس في نفسه إحساس الغريق الذي يريد أن يخلد إلى الراحة بعد طول مناضلة للموج، وبعد مجاهدته للرياح العاتية..

لشد ما أثّر حديث صديقه في قلبه ووجوده، ولشد ما أذاع في فؤاده الضيق والرضا معًا، فلقد وقع موقع الماء على النار المشتعلة، أو موقع الدواء على الجرح الدامي الغائر، ولكن ما زالت بعض النار متأججة، وجزء من الجرح ينزف، ولا يستطيع الدواء أن يخفف من ألمه شيئًا..

أخذ وحيد يستعيد ما قاله صديقه، ويقلب نداءه على وجوه عدة، فوجد في حديثه كثيرًا من الحقيقة التي بدأت تنير له طريقه في ظلام الكون، فشرد ذهنه بعيدًا عن عالمه إلى عالم لا يعرف مسلكه إلا هو، وانطلق يطوف في أنحائه بمشاعره الثائرة المضطربة، فتواردت أمامه صور حياته، وتواثبت على ذهنه مناظر الشقاء والسعادة، واستحضرت في خياله أصداء كثيرة لألوان متعددة من المرح والنعيم، والألم والدموع..

إن صديقه (كمال) لعلى حق، فلِمَ التعلق بالماضي والعيش فيه ما دام لا يغنم منه إلا الحزن اللافح والأوجاع الثائرة؟! ولم التشبث بحوادث الأمس والعيش في مسارح الماضي ما دام لا يصيب فائدة، ولا يلاقي إلا حرقة في القلب، وتكدرًا في النفس، وتمزيقًا في الأحشاء؟!.

حقًا إن كلام صديقه ليبلغ مجاهل نفسه، "نعم يجب أن أتجرد من نقمي، وأن أزيل من نفسي الغيظ، وأن أتخلص من الكره الذي يجعل حياتي جحيمًا، ولكن لا؛ إنني

لا أقدر على النسيان، كل ما قاله، وكل ما ادعاه- أشياء لم تلق هوى في نفسي"..

هكذا حدث الفتي المكلوم نفسه، وإذا به عقب خواطره وحديثه لنفسه يشعر بوحشة عميقة، تماثل وحشة الطريد المجروح الذي يجد نفسه وحيدًا بلا أنيس في صحراء واسعة، لا يدرك البصر حدودها..

فأخذ يجادل نفسه واندفع يحملها على أن تنظر كما ينظر أولئك الرفاق من زملائه الطلبة، بعيون تفيض بالسعادة والمرح، واندفع يحفزها على اللهو كما يلهون، والعبث كما يعبثون..

وتفتحت نفسه لهذا الخاطر أو هذا الإحساس الذي كاد يبعث فيه الأمل، وابتسم ابتسامة مشحونة بالفرحة والرجاء، ولكنه ما لبث أن انفعل، وغاضت الابتسامة من وجهه، وما لبث أن صبّ على زملائه حنقًا وغضبًا..

- "يا ويلي إن كاهلي لا يطيق كل هذا، وأعصابي لم تعد تتحمل".

ثم استغرق في بكاء حاد، بكاء الحيران الذي ينظر أمامه فلا يرى إلا حياة يجللها السواد، ويتحول وراءه فلا يشاهد إلا الكآبة والعبوس..

أفاق من غشية البكاء، فاختنقت دموعه المنهمرة، ولكنه أحس أنه موزع النفس بين الماضي والحاضر، وبين الأمل واليأس؛ وأنه غير متماسك لا يستقر على حال، ولا يستكن إلى شيء..

سمع (وحيد) صوت خالته يقترب، إذ هي تناديه؛ فجفف دموعه، واتجه إليها وهو على عبوسه ووجومه، فقالت، وهي تقترب منه حتى واجهته:

- ماذا بك يا بني؟ أكنت لا تسمعني؟ ما أشد غبائي، كنت نائمًا؛ فإنك بلا شك بك من التعب والإرهاق مما جعلاك تغفو هكذا مبكرًا، والساعة لم تزد على الرابعة.

فقال مقتضبًا:

- حقًا، إني كذلك!

فقالت وهي تهم بالخروج:

- ألست في حاجة إلى شيء؟
- لا ، شكرًا.
- فليحالفك الهدوء، سأذهب لزيارة إحدى الصديقات ولن أغيب طويلاً.

ثم تركته وانصرفت.

بعد خروجها من البيت شعر الفتى بصمت أبكم، وسكون رهيب، وكأن البيت الكبير قد صار أرضًا خربة لا تدب فيها رجل، ولا يقدمها إنسان، أو كأنه أطلال بيت مندثر، يراه الرائي من بعيد ويخشى الاقتراب منه؛ فانبعث فيه الماضي، وآبت ذكرى أخته، وتمثل له طيفها الذي يجري في دمائه، فمشى إلى نافذة الغرفة منساقًا، وأطل على حقول الذرة الخضراء الممتدة أمامه، والنسيم يهز أوراقها مترفقًا، ثم تطلع إلى السماء، فلقي الشمس تتحرك منحدرة إلى غرب الكون، وهي ترسل أشعتها الواهية على أوراق الذرة الخضراء، فتضفي عليها لمعة باهرة للنفس..

تنبه (وحيد) بعد مدة من سرحته في الذكرى ومع الطيف، والطبيعة، تنبه على نقر خفيف متقطع متردد على

الباب الخارجي؛ فأرهف السمع، فوجد النقر يعلو مرة بعد مرة، فقام وسار وهو يرى في نفسه هزالاً، حتى وصل إلى الباب ففتحه، وما كان أكثر مفاجأته حينما رآها، وما أشد ما كان بغضه لها حين وجدها تنظر إليه، وما أبلغ ما كان حقده عليها حين سمعها تهفو به، وتتوسل إليه أن يدعها تدخل حتى تفضي إليه بحديثها، فترك الباب مفتوحًا، وأدار لها ظهره ..

قالت له وصوتها يرتجف:

- انتظرتك طويلا، وترقبت كثيرًا ، حتى واتتني هذه الفرصة عند خروجها.

فقال في جفوة:

- ولم كل هذا؟

فاقتربت منه، وقالت:

- لأجلك ، لأجلك أستعذب الألم، وأتحمل الهوان، ومن أجلك أخدع نفسي بالسعادة وهي بعيدة عني!

فحول وجهه عنها في صرامة وحنق:

- ماذا قلت؟ لم أقل لك تحملي شيئًا من أجلى، بل قلت لك: ابتعدي عني ، ولا تزيدي من جراحي.

وفي لمح البصر تعلقت به، ونظرت في عينيه بعيون حزينة منكسرة، ثم قالت له، ولا يزال صوتها يرتجف:

- أي برهان تريد على حبي لك؟!

فقال:

- لا شيء ... لا أريد أي برهان ..

قالت من بين نشيجها:

- بربك لا تزد في إذلالي، وكفاني ما تحملت من عذاب الهجر!

فتحول غضبه وحنقه إلى ثورة لا يكبح جماحها، ثم قال:

- إنك جحيمي الذي يصب على، وسوطي الذي يمزق في جسدي، وينهش لحمي، ويريق دمي ..

تركها في مكانها وانطلق يعدو من المنزل هائمًا على وجهه بين المزارع والحقول؛ لا يبالي بما يلقاه من وعورة الأرض، ولا يراعي مسالكها التي تتعثر فيها قدماه..

وكان الكوكب الدامي يجر آخر أشعته وراء الأفق البعيد؛ فصبغت السماء بلون أحمر داكن، وكانت النسمات الباردة تعبث بأفنان الأشجار فتصيبها الهزات، عندما كان الفتى قابعًا في مكانه الدائم على الربوة العالية، يبكي بكاء اليتيم اليائس، ويناجي مناجاة البائس المظلوم!!

في مساء اليوم التالي رأى (وحيد) عند عودته أناسًا يدخلون وأناسًا يخرجون من المنزل المجاور، وسمع أصواتًا مختلطة من الرجال والنساء، فلم يحاول أن يسأل عن سبب ما يرى، وما يسمع، بل مضى في طريقه حتى كان في منزله..

ولما لم يجد أحدًا ظهرت عليه الدهشة، وسرح بذهنه لدقائق، ولكن دخول خالته عليه نبهه، فتوجه إليها

خافق القلب، وشخص إليها بعينين مليئتين بالأسئلة، ولكن راعه ارتجاف بدنها، وتقلص أعضائها، فقال جاف اللسان يابس الحلق:

– ماذا بك أيتها الخالة الحنون؟ إن ما يعتريك لا بد له من سبب.

– نعم يا ولدي، (وفاء). مسكينة هذه الفتاة، إنه ليعز عليَّ ما أصابها، وليحزن قلبي ما انتهت إليه، منذ مساء أمس ألمت بها حمى شديدة؛ جعلت من أثرها تهزي، ولم يطلع الصباح حتى كانت حالتها سيئة، فعرضوها على طبيب، ولم يكد بعض اليوم يمضي حتى أصيبت الشقية بهياج عصبي مستمر؛ فذهبوا بها إلى مصحة للأمراض العقلية ..

سكتت المرأة لتمسح دموعًا سالت على وجنتيها، ثم تابعت:

– يا لها من شقية تعسة.

فانساب (وحيد) من مكانه حتى بلغ غرفته وأغلقها عليه، وإلى النافذة مشى، وألقى بصره على الفضاء المظلم، ولكنه تحول عن النافذة، وجعل يتمتم: جنون مجنونة ... مسكينة، شقية ... وانفجر يضحك ساخرًا هازئًا، ويقهقه بصوت ينطوي على نفس نشوى منتصرة، ولكنه فجأة يبكي بكاءً مرًا، وينتحب انتحابًا طويلاً.

۞ ۞ ۞



الفصل الخامس



الفصل الخامس

اختفت شمس الشتاء وراء الأفق البعيد، واغبر الجو بعاصفة شديدة هبت من الشمال، وأخذت الرياح تتخلل أوراق الأشجار فتحركها، وتدفع الأغصان فتميلها يمنة ويسرة؛ فينبعث صفير خفيف يلقي في النفس الرهبة والخوف، ثم إذا بالسحب ترتجف فتملأ الدنيا بروقًا، وتشيع فيها رعدًا هائلاً، يشبه قصف المدافع في حرب دامية..

وترقب السماء ما يحدث تحتها، وتحس ما يضطرب في جوانحها؛ فتختنق بالبكاء حزنًا لما كانت عليه من سكينة وصفاء؛ فتبكي بكاء من يريد أن ينفث عن نفسه الموجوعة، فيتساقط دمعها غزيرًا ... وتتمادى هي في بكائها، حتى يمر أكثر النهار..

وكان الفتي يرقب الطريق من النافذة عندما أخذت السماء تجفف دموعها، ويتابع بعض القطرات التي تعلق بالزجاج لحظة، ثم لا تبث أن تسيل وتنحدر، لكأنه يرى في ذلك متعة، ونسيانًا لما يضطرب في قلبه..

وسطعت الشمس على الحياة، فأرسلت حرارتها على الفيافي والقفار، ونشرتها على المروج الخضراء والمزارع والحقول، وبعثت دفأها في الأبنية والمساكن والطرقات؛ فنعم بها الإنسان والطير والحيوان..

ترك (وحيد) النافذة، وذهب إلى الشرفة وفتحها، ووقف يرقب الغادين والرائحين، وهم ينطلقون مسرعين، وكــأنهم نزيلو زنزانة قد أفرج عنهم، ثم إذ به يرى شابًا

ممسكًا بيد فتاة، والمطر بلل ثيابهما، والسعادة بدت على وجهيهما؛ فاختلج فؤاده. ومرت بضميره سنحة سريعة من الأسف والندم، والخجل أيضًا؛ حينما تذكر الماضي "ماضيه مع وفاء"، تلك الفتاة التي كانت تسحره بكلماتها المعسولة ولهجتها الرقيقة، فسأل نفسه عما حدث في ذلك اليوم، يوم أن جاءت إليه ذليلة ضعيفة، وكأنه لا يعرف حقيقة ما حدث..

وغارت يقظة ضميره، فأغمض عينيه تألمًا عندما آبت ذكرى نعمة، ولكن يقظة ضميره ما برحت أن روعته، وجادلته في مصير (وفاء)، التعسة نزيلة مصحة الأمراض العقلية،ورأى الفتى أنه ضعيف أمام يقظة الضمير، فتصلبت أفكاره في رأسه، وتجمدت أحاديثه على لسانه، ورأى كذلك مسالك الكون قد سدت دونه؛ فوقف حائرًا لا يدري أين السبيل، وكأنه منبوذ، شط الناس عنه وبعدوا عن طريقه، فتركوه لوحدته وحيرته ... وبدا له كأن النور الوضاء- نور الطبيعة - قد خبا وانطفأ، فعادت الدنيا ظلامًا حالكًا، وغدت موحشة رهيبة ... وقال في نفسه:

- حتى هذه الطبيعة التي كنت أستوحي منها أشياء تسلوني فيما فات، وتؤنسي فيما انقضي من دارس الأمل وضائع الرجاء، حتى هذه الطبيعة التي كانت ملجأي الوحيد، وملاذي الذي ينتشلني من عذابي - ضاق بها صدري، وعنفت عليها، وأصبحت نفسي لا تطيقها...

ترك (وحيد) البيت باكيًا، وما كاد يبتعد عنه حتى وقف وتلفت حوله حائرًا خامدة قواه، منهارة أعصابه مبلبلة أفكاره. ثم انطلق في طرقات المدينة وهو يرى الحياة مقفرة من الأماني، خالية من الآمال ..

انطلق يسير بنفس مهمومة؛ ويقطع الشوارع والأزقة بروح حزينة وبفؤاد كسير، بعد أن فقد إيمانه بنفسه، وبحقيقة وجوده في هذا المجتمع الفسيح..

وكانت الساعة تقترب من السادسة مساء، والليل قد نشر عباءته السوداء على الكون؛ فأضيئت الأنوار لتشيع الأنس في المدينة، ولتطرد منها أشباح الخوف التي تتوالد في الظلمات، وبدا ميدان "الساعة" كقطعة من نور؛

فالأضواء تملؤه والأرض مغسولة بماء المطر؛ فعكست أضواء العمد والحوانيت المتألقة في بهاء، وكأنها تفطن لما تضفيه على المكان من سحر..

وقف (وحيد) عند بقعة فسيحة مرتفعة قليلاً تتوسطها ساعة قائمة هائلة، عند أسفلها التفت كثير من الزهور والرياحين، وألوان عديدة من الأوعية الفخارية الحاملة وروداً فاحت رائحتها، وانتشر في الجو عطرها..، ووجد وحيد وهو في مكانه رغبة جارفة في تصفح وجوه الغادين والرائحين؛ ولكأنه يبحث عن أحد، ويتمني العثور عليه ..

دقت الساعة المطلة على الميدان في أنفة وكبرياء، أعلنت عن السابعة، فتطلع إليها بغضب؛ فهي حددت وقوفه الموحي بالريبة والشك، فهَمَّ بالانصراف، ولكنه ما كاد يفعل حتى رأى وجه فتاة جميلة تقبل تجاهه، فاضطرب، واعترت جسده هزة عنيفة، كاد يسقط بسببها، وتحامل على نفسه، وجعل ينظر إليها في شبه غيبوبة أحس لذتها في نفسه..

وكأنما شعرت الفتاة بما يتقاذف في نفسه من شجو وفرحة، فوقفت أمامه مرغمة، يكتنفها العجب والذهول والاضطراب، ومعها طفلان أمسكا بيديها، وأجالا بصريهما بين الفتى والفتاة في شيء من الاستغراب البريء، وفي شيء من السذاجة النقية..

وهفت إليه بعيون وَسْنَى، وأوتار قلبه تهتز طربًا؛ فانبعث من صدرها دق عنيف يشبه النغمة الحالمة ... فاقترب منها مشدوهًا، فرأى قوامها الرشيق يهتز، ووجهها الهادئ تختلج عليه شفتاها في سكون، فتبدو منها بسمة من حين إلى حين، وشعرها الذهبي الناعم يعبث به الهواء؛ فيوحي بحسنها ودعتها. وتنبه الاثنان على صوت أحد الطفلين وهو يقول:

– "أبله سلوى، مالك؟! مالك يا أبله سلوى؟!".

فاقتلعت الفتاة رجليها من المكان ومضت في طريقها وتركته في الميدان، فقال لنفسه:

- "يا للسماء إنها تشبه (نعمة) الأخت الذاهبة، وتماثلها في كل خلجة من خلجاتها، ولا تختلف عنها في شيء".

سكت قليلاً، ثم واصل:

- " أجل هي نعمة ... كلا إنني واهم مخدوع، فهي اسمها سلوى، ولكن يا لتعاستي، لو لم أكن شاهدتها يوم موتها، ولو لم أرها وهم ذاهبون بها أمامي إلى مدينة الصمت، ولو لم أسمع الصراخ والعويل عليها، ولو لم أثوها بيديَّ هاتين في باطن الثرى - لصدقت أن من رأيتها الآن أختي (نعمة).

توقف عن همسه؛ ليطلق بصره بين الناس قائلاً في همس أيضًا:

- "أين هي؟ أين لا بد لي من رؤيتها مرة أخرى...

انسل من مكانه وأخذ يبحث عنها، حتى وجدها تدخل سينما أمير؛ فأسرع مريدًا اللحاق بها، ولكنها كانت قد اتجهت إلى الداخل، فابتاع تذكرة، وأسرع خلفها مندفعًا بقوة خفية استحوذت عليه..

ولكم كانت سعادته حين كان مقعده بجوارها، فجلس نشوان، متفتح الصدر لأنفاسها التي تغمره حنينًا وهيامًا، أحس الفتى وكأن الحاضرين يحدجونه بنظراتهم، ويهمسون في شأنه وشأن الفتاة..

ولم يمضِ قليل من الوقت حتى بُدِئَ في عرض (الفيلم)، وأخذ الزمن ينصرم في خمول وكسل، والفتى لا يحول بصره عنها..كان يرى وجهها الجميل على إضاءات الصور المتحركة التي تعكسها الشاشة الفضية.

كان سعيدًا بالنظر إليها، وكانت سعادته تفيض حين ترنو إليه، وكان نشوان حين يقرب منها، وكانت نشوته تغمره حين تبسم له، وكان مغتبطًا وهو يحس أنفاسها، وكان اغتباطه يتدفق حين تلحظه بعينيها الناعستين..

انتهى الفيلم وأضيئت الأنوار، وبدأ الحاضرون في الخروج، وأخذت هي طريقها هادئة، فتابعها سائرًا خلفها في خطوات وئيدة، وكانت هي ترمقه بطرف من عينيها في خفية منه، فتراه خلفها كتابع أمين..

وفي الطريق المؤدي إلى بيتها كان الفتى يسير بجانبها، يملأ عينيه منها، ولا يحاول أن يحادثها أو يسمعها كلمة، فكفاه أن يراها أمامه، ويحس وجودها بجانبه..

وكانت هي مرتبكة تكاد تتعثر قدماها لما أصاب نفسها، ولما ذاع في قلبها من هيام، كانت مبهورة، ويدق قلبها دقًا عنيفًا؛ حتى يكاد يقفز من بين ضلوعها، أو يسمع دقاته من اقترب منها..

وعندما اقتربت من بيتها هدَّأت من خطواتها، وبطأت من سرعتها المنفعلة في مشيتها، وسارت على مهل، حتى وقفت عند الباب للحظات، تابعت (وحيد) خلالها وهو يمضي أمامها، تابعته بوجيب قلبها، وبعيون تشع منها الفرحة..

وعلى بعد خطوات منها وقف (وحيد) "موئدًا انجذابه نحوها"؛ فحولت وجهها عنه، وأخذت ترقى سلم المنزل في خفة ورشاقة والطفلان في أثرها، حتى اختفت من عينيه؛ فحزن لفراقها وتألم لذهابها؛ فأجال بصره بين

طوابق المنزل وشرفاته؛ عساه يلمحها، ولكن الوقت ينقضي، وهو لا يزال رابضًا في مكانه، ولا يراها..

ولما هَمَّ بالسير إذ بإحدى شرفات الطابق الثالث تفتح فجأة، وتظهر الفتاة وأضواء الطريق منعكسة عليها؛ فغاص في ظلام شارع جانبي، وسار في الطريق إلى بيته متفتح النفس، منشرح الصدر؛ لرؤية الفتاة، وابتسم لأول مرة ابتسامة نابعة من قلبه..

نام (وحيد) في تلك الليلة نومًا عميقًا، وأسلم نفسه لسلطان الكرى الهادئ، بعد أن أمضى أيامًا عديدة وشهورًا كانت مشحونة بالقلق، وتفيض بالأرق والسهاد. واستيقظ في اليوم التالي سعيدًا يبش في وجه خالته، ويتحدث إلى زوجها الكهل مرحًا مسرورًا، فأخذهما العجب لهذا التحول الغريب، ولكنهما لم يسألاه ، بل شاركاه سعادته وهناءه، ولأول مرة تنقشع سحابة الكآبة عن المنزل بعد مدة طويلة..

بعد أن خرج زوج خالته، رأى (وحيد) خالته تتطلع إليه تستعلمه سبب تغيره، وتستنبئه سر سعادته، وهي مع

ذلك تبتسم له؛ ولكنها تحوي قلقًا يبدو من نظرتها له؛ فمشى إليها حتى اقترب منها، فقال:

- خالتي، إنني سعيد؛ فليسعد الناس لسعادتي، ولْيهنأوا لهنائي.

- أدام الله سعادتك يا ولدي.

فأطرق طويلا، وقال:

- لقد رأيت (نعمة) رأيتها بالأمس! شاهدتها بعينيَّ هاتين.

فجفلت الخالة العطوفة، وقالت:

- ماذا بك يا بني؟! لا بد أنك تَعِب مرهق.

فشعر الفتى بما يراودها، وعلى وجهه ابتسامة واسعة، وقال:

- أجل، وجدت نعمة، رأيتها في فتاة أخرى، في حركاتها في كل ما يبدو منها؛ سلوى؛ هذا اسمها؛ لو لم أجزم بموت نعمة ! لأيقنت أنها هي...

تنهدت المرأة التي خالط شعرها الكثيف الأسود شعرات بيضاء متفرقة؛ أضفت عليها شيئًا من جمال الشيخوخة، تنهدت في ارتياح، وكأنها أزالت من نفسها ما كان يقلقها ويحزنها ..

في المساء ذهب (وحيد) يبحث عنها، وحام حول منزلها، متطلعًا إلى شرفتها، فوجدها مغلقة، فوقف حينًا بحيث يراها، وتكون أمامه ويستمتع برؤيتها. وتصرم الوقت ولم تظهر أمامه؛ فالشرفة لم تفتح، وتمتم بكلمات :

– " أأذهب قبل أن أراها؟ لا، يجب على أن أبقى بعض الوقت لأراها.

ولكن اليأس هاجمه؛ فسار بطيء الخطوات، وذكريات هائجة تغشاه، وأطياف ثائرة تتمثل له؛ فتسمو بخواطره إلى عالم غير عالمه، عالم محتجب يراه هو ولا يراه إلا مَن بمثله تعاسة..

وفجأة؛ إذ به يراها مقبلة أمامه في ثوب مدرسي رمادي اللون، وهي تحوي حقيبة كتبها بين ذراعيها في

رفق، وكأنها تمسك بشيء عزيز تخشى عليه التلف والضياع. ووقف هو يرقبها في حب أخوي غامر، يرقبها مراقبة الأخ المتلهف الذي يرى أخته أمامه، ويحاول الدنو منها، ولكنه يرتطم بشيء يحول بينه وبينها..

مرت أمامه هادئة خفيفة متهللة، وكادت تختفي منه، فمشي خلفها منجذبًا، وتابعها على البعد مسحورًا، حتى دلفت إلى بيتها ساكنة منسابة كانسياب ماء النهر على منحدر أملس، وما أن بلغ بيتها حتى رآها في الشرفة واقفة ويدها على صدرها، وهي تميل برأسها إلى أسفل تتابعه، فنظر إليها في حنان وعطف وقلق، ووَدَّ لو يقف أمامها لحظات، لولا أنه رأى أن ليس من حقه أن يفعل، وكفاه رؤياها اليوم..

وأخذ ينتزع قدميه انتزاعًا، وكأنهما قطعة من حديد على أرض "مغناطيسية" تجذبهما إليها، ولكنه قاوم، وجاهد وهمس في نفسه: "ليس من حقي، فهي ليست إلا فتاة من أولئك الفتيات اللائي أنقم عليهن". وتنقضي الأيام وهو دائب على الذهاب لرؤياها كل يوم في مثل ذلك الوقت..

فطن (وحيد) إلى أن (سلوى) في مدرسة خارج المدينة؛ وذلك لرؤيته لها يومًا وهي خارجة من محطة القطارات، فكانِ يترقبها حتى إذا رآها جاش بها صدره، وانفعلت بها نفسه، ثم يتابعها على البعد في الطريق المؤدي إلى بيتها، ثم تصعد هي الشرفة، حين يمضي أمامها يراها ترمقه هَيْمَى، ويدها على صدرها..

وكان يروي لصديقه (كمال) ما يحدث، والفرحة تكاد تثب من عينيه، كان أكثر حديثه عن الفتاة، ولا يسأم ولا يملّ من ذكرها الدائم، بل على العكس كان يحس في نفسه سعادة ليس بعدها سعادة، ونشوة ليس بعدها نشوة. وحينما يخلو بنفسه، ويشعر بوحدته، يرى رغبة شديدة في الإفضاء بما يعتمل في وجدانه، وإلحاحًا قاهرًا في بث (كمال) أحاديثه التي دائمًا ما تؤرقه، وكثيرًا ما تسلمه إلى أحلام اليقظة..

وكان (كمال) يعجب من لهفة صديقه في حديثه عنها، وتهافته الزائد على ذكرها؛ فسأله في يوم بينما كان الاثنان في منزل (وحيد):

- كثيرًا ما تتحدث عنها، وأرى أنك تحبها حبًا طاغيًا.
- أجل، أحبها.
- إذن فاذهب وحادثها؛ لتريح نفسك من هذا القلق الذي يعذبك.
- أحادثها؟! ولم؟! ليس هذا من حقي؛ إنني ما أحببتها إلا حب أخ لأخته؛ وما أشعر نحوها إلا شعورًا أخويًا صادقًا.
- كلا يا صديقي؛ بل إنك تخدع نفسك، وتتهرب من الحقيقة، فحبك لسلوى فاق حبك لنعمة.

فتغير وجه وحيد، وقال حانقًا:

- لست كما تظن، إنها ليست إلا فتاة من أولئك اللائي أبغضهن، وأحقد عليهن.

فقال (كمال) وهو يحدجه بنظرة ثاقبة:

- وإذا كان، فلِمَ إذن استثناؤك؟

فرد (وحيد) في بساطة ممزوجة بالقلق:

- ما استثنيتها إلا لشبهها بنعمة، وما أحبها إلا لأني أرى فيها صورة أختي الراحلة.

- ولكن حبك لها فاض، وتدفق، وأضحيت أنت غارقًا فيه بكل ما تملك، إن حبك لسلوى متطور.

فقال الفتى فاغرًا فاه:

- متطور؟!!

- أجل يا صديقي، حبك لها مر بفترتين: الأولى أحببتها في شخص أختك ... كنت ترى فيها عودة إلى الماضي بحنينه وشوقه وحنانه، واجتزت أنت الفترة الأخرى، وصار حبك لسلوى أقوى من حبك الأول في شخص (نعمة)، وأصبحت ترى فيها أملك، بل تراها حياتك، وكل ما تبغيه من هذا الكون من موجودات...

فنظر (وحيد) في براءة، وكأنه طفل يتلهف على من ينقذه من شبح مخيف، فأردف (كمال) وهو يربت على كتفه:

- ينبغي لك أن تتقدم وتحادثها ... بل يجب. فاتحها بشعورك نحوها.

فتمتم الفتى:

- كيف؟ إنني لا أدري أحاسيسها نحوي!

- عجبا ! ماذا تعتقد في وقوفها لك في الشرفة وانفعالها لرؤيتك، ومتابعتك وأنت سائر في الطريق. إنك غافل يا صديقي، إنها تحبك وتهتم بك، بل تمهد لك الطريق لمقابلتها، وأنت لا تدري...

فأطرق الفتى حزينًا كئيبًا؛ فحديث (كمال) وقع في نفسه موقعًا بليغًا، ونال من مشاعره فأججها؛ فترك روحه تسرح في مسارح الهوى بلا تحكم، وترك أشجانه وعواطفه تهيم في رياض الحب وظلالها الوارفة، فعرف أنه كم خدع نفسه، وكم أغلق قلبه في وجه هذا الحب الذي يحوم حوله، وكم أغضى عن تلك الخفقات التي يخفق بها فؤاده حينما يراها، وتلك الهمسات التي يرسلها قلبه مع النسيم عندما يذكرها في وحدته.

۞ ۞ ۞

صعدت سلوى، ووقفت في الشرفة ترقب مضي (وحيد) كعادتها، وكما ألفت هي مشاهدته كثيرًا على ذلك الوضع؛ ولشد ما كانت مفاجأتها حين رأته يقف متطلعًا

إليها، وما أعظم ما كان اضطرابها وانفعال عواطفها حين رأته يبتسم لها، ويومئ برأسه وكأنه يسألها المجئ إليه..

وقفت هي حيرى من أمرها؛ فلا تدري كيف تفعل أو كيف تتصرف، كانت منجذبة انجذابًا أرض الشرفة؛ فلم تَقْوَ على الحركة، وراحت تنظر إليه في وقفته، وتنعم بمشاعرها التي تلهب وجدانها، وبعواطفها التي تتفجر حنانًا ولهفة من جوانحها..

وعدا الوقت سريعًا؛ فحنق (وحيد) على نفسه؛ وكاد يذهب؛ فأحست الفتاة وكأنما مستها نار محرقة؛ فأشارت إليه بيدها وغادرت "الشقة"، وما إن بلغت السلم حتى أخذت تثبه وثبًا كقطة هائجة، وخيل إليها لو تلقي بنفسها إلى أسفل السلم؛ حتى لا تفلت من يدها الفرصة التي سنحت لها أخيرًا..

ورأته واقفًا في مكانه، ورآها تخرج إليه فسار الاثنان، وقلباهما يدقان لذة، وجسداهما يهتزان طربًا؛ وروحاهما يهيمان نشوة وصفاء..

وتشابكت يداهما حينما بعدا عن المنزل يسراه في يمناها، فأحس (وحيد) بيدها ترجف في يده؛ فضغط عليها مترفقًا لتأنس اليد الخائفة لديه؛ فرنت إليه (سلوى) رَنْوة حلوة فتلاقت عيونهما، عندئذ أغضت الفتاة، فحاول الفتى أن يقول شيئًا، ولكن لسانه جف، وصوته احتبس ... كان السكون ساريًا بينهما؛ لكأن رسول الصمت قد ضرب على ثغريهما؛ فلم يتفوها بكلمة..

وكانت حركة يديهما هي حديثهما الشائق الذي استمر زمنًا طويلاً، وفي طريق بعيدة عن الأضواء والعيون تحرر(وحيد) من صمته:

– أنا أسعد مخلوق في هذا الوجود، وأنت هنا بجانبي..

فتخلصت سلوى من سكوتها كذلك، وقالت:

– لست بأكثر سعادة مني، قلبي كله أنغام، وفؤادي كله أصداح تفيض حولي بهجة ورضا.

– كنت أخشى ألا تأتين؛ فأكون بذلك قد نالني خطر عظيم...

– كيف تقول هذا؟! وأنا الذي انتظرت؛ وترقبت طويلا. كنت تمضي أمامي وآمل في وقوفك؛ فأهبط إليك؛ ولكن كان يخيب أملي حين توليني ظهرك؛ وأحيانًا كنت أتعمد ألا أنظر إليك في الطريق؛ حتى أدفعك إلى الدنوّ مني ومحادثتي، ولكنك لا تنتبه، فأحنق عليك وعلى نفسي.

سكتت برهة، ثم استأنفت قائلة:

– ولولا ما بي من الخجل والحياء لكنت تقدمت أنا منك، ورجوتك أن تحدثني.

– لك أسفي، فقد كان هناك ما يحول بيني وبينك.

–ليس هناك حائل بيننا، إلا إذا كنت لا تفهم حقيقة شعورك نحوي!

–إنك تظلمنيني، بل لا تفهمينني.

وبدا يخبرها بماضيه، ويذكر لها سبب تردده، وكانت وهي تسمع له يخفق قلبها جزعًا، وتقطب جبينها دهشة وذهولاً..

ومرت بهما لحظات صمت، لا يشوبها إلا أنفاسهما الحارة المتلاحقة، ولا يخالطها إلا دقات قلبيهما العنيفة التي

يسمع صوتها، وكأنها أوتار يلعب في خفة عليها موسيقي ماهر، وفتت صمتها أخيرًا حينما قال، وهو يهفو إليها:

-ولكنني أعوض ماضيَّ بك؛ فأنت الأمل الدائم، والأنيس الذي يملأ حياتي الخاوية، وأنت السمير الذي يطرد من وجودي الوحشة، ويشيعه طربا...

فأطرقت سلوى في وداعة، وحمرة الخجل تصبغ وجهها.. فتابع حديثه الذي بدأ يقرب من الهمس:

-ماذا بك؟ فيم تفكرين! أأكون مسست شعورك؟!

فهتفت سلوى به:

- كلا ، إنني أفكر في تلك الكلمات التي دائمًا ما تضطرم معانيها في قلبي، ولا أقوى على البوح بها والإفصاح عنها.

فاقترب الفتى منها، وأمسك بيدها المرتجفة، وتطلعا معًا إلى السماء؛ حيث مورد الحب الأعلى، ومنبع العواطف الأسمى، اتجها إليه يدعوانه أن يحمي حبهما خالصًا نقيًا، ويودعانه عهدهما على الوفاء، حتى يجتمعا

معًا في ظلال الفردوس، وينعمان في مواطن الخلود والبقاء..

وكأن الطبيعة تأثرت من موقفهما؛ فاغرورقت عيونها بدموع الفرحة، أو كأنها أرادت أن تكون الشاهدة الأمينة عليهما، فأزرفت مدامعها حارة شديدة؛ وبللت الجسدين الملتصقين، وأخذ المطر ينهمر عليهما، فغسلهما سويًا، لتمتزج قطرات من جسده بقطرات من جسدها، فصاح وحيد نشوانَ:

- انظري، ها قد ربطت بيننا الطبيعة بدموعها، ها قد صدَّقت على عهدنا، وأمَّنت على وفائنا، إنها الشاهدة علينا الآن!!".

✪ ✪ ✪

الفصل السادس



الفصل السادس

لم ينم (وحيد) في تلك الليلة، ولم تر أجفانه الغفلة، فأخذ يتقلب في فراشه أرِقًا مسهدًا، يحس بثورة في ضميره على نفسه وحبه وعاطفته، ثورة نبهته للخطب الراهن، وأبانت له الحقيقة الواقعة؛ ففجرت ينابيع الحزن في قلبه، وبعثت في فؤاده مواطن الألم القديم؛ فغدا جسده كله نارًا تضطرم ..

لقد أفزعه أن قلبه استجاب لنداء الحب، وهتاف العاطفة على الرغم من المحنة القاسية التي كان يعيشها، فما كان يفكر يومًا بعد نأي أخته إنه يتردى هكذا في هوة الهوى؛ حيث يتمكن الحب من قلبه، ويأسر عقله وضميره. ما كان يتوقع يومًا أن شعوره نحو (سلوى) يتطور هكذا؛ حتى يغدو شغله الشاغل، فطالما حاول أن يقهر عواطفه نحوها، وأن يقبرها، ولكنها كانت أقوى وأكثر صمودًا، فحالت بين عاطفته وما يريد. وطفا حبه فوق ذكرياته، وغمر أحزانه وآلامه، فأغرقها وقذف بها إلى شاطئ النسيان..

جلس (وحيد) في فراشه يلهث، والعرق يقطر من وجهه، وشعر بحرارة مَن أرقته الأطياف وطاردته الذكريات. وعند الفجر، حين انبثقت أضواء السماء موحية إلى البشر أنْ أتى يوم جديد، وعندما تسلل من زجاج النافذة ضوء خافت ضعيف – أحس الفتى طمأنينة في صدره؛ فقام إلى الشرفة وفتحها. استقبل هواء الصباح البارد، فتنهد مرتاحًا، وسرَّح بصره راضيًا، فشعر وهو في وقفته أن

الهواء يتنفس عطرًا، ويشع في الوجود أريجًا فواحًا، وأن الدنيا يغشاها جمال خالد، والفضاء الفسيح المترامي أمام ناظريه يرجّع أنغامًا سعيدة وأهازيج النشوة والحب والسلام..

تثاءب (وحيد) تعبًا، فارتد من الشرفة، وأحكم قفلها، ومشى إلى فراشه، وألقى بنفسه عليه؛ وما كادت تمضي لحظات حتى غط في نوم عميق.

✪ ✪ ✪

وقفت (سلوى) في شرفتها ترقب مجيء (وحيد)، والزمن يمر. يمر بدقائقه وساعاته، ولم يأت بعدُ. ثم أخذت تزرع الشرفة غادية رائحة؛ وقد ذاع في نفسها اللهفة والحنق معًا، وانتشر في رأسها القلق حتى فاض بها؛ فتوترت أعصابها، وانفعلت في تصرفاتها؛ فانطلقت تغدو إلى الداخل تارة، فتربض بجانب أمها قليلاً، ثم تارة تقفز فجأة كمن لدغتها عقرب، وتمشي إلى الشرفة فتطل على الطريق؛ وتتفحص الوجوه وجهًا وجهًا، خوفا من أن عيونها قد تخونها..

واقتربت منها أمها التي ناهزت الأربعين، ولا يزال في ملامحها حيوية الشباب، وفي عينيها بريقه الأخاذ. اقتربت منها، ومسحت بيدها على شعرها الذهبي الناعم، وربتت بيدها الأخرى على كتفها، وقالت حانية رقيقة:

– ماذا بك يا صغيرتي؛ إنك لم تهدئي منذ وصلت؟

– لا شيء يا أماه ... وما ترينه فيَّ وَهْمٌ !

فبسمت الأم، وقالت:

– لا تتهربي يا بنيتي، أخبريني بما يقلقك؟

فأجهشت الفتاة بالبكاء، وارتمت في أحضانها؛ فضمتها أمها إلى صدرها، ومشت بها إلى الداخل. إن الفتاة لم تلق الفتى (وحيد)، ولم تره من ثلاثة أيام، وأمسِ كان موعد مقابلتها له، فانتظرته ولم يأت..

عاشت (سلوى) مع انقضاء الليل ساهرة حزينة تنتابها الهواجس، وينتشر في وجودها الوهم والخوف مما يخبئه لها القدر في خبيئته، ومما تخفيه الأيام بين طياتها، ورأت وهي في تلك الساعة المتأخرة من الليل– رأت

ظلامًا حالكًا– يجلل مستقبلها – وغبارًا كثيفًا يموّه الطريق إليه؛ فلا تراه العين، ولا يشعر به القلب؛ فأفعمت نفسها الهموم وملأتها الآلام والأحزان..

في مساء اليوم التالي كانت (سلوى) تمشي على مهل، وتتلفت حولها من حين إلى حين، وفي صدرها يتماوج شعور باليأس من رؤية (وحيد)، ولكنها كانت لا تزال تتعلق بخيط من الأمل الواهي..

ظلت سائرة في شوارع المدينة، تقطعها دون وعي منها، وساقتها قدماها إلى ميدان الساعة المتألق الأضواء، واقتربت من المكان الذي تلاقيا فيه للمرة الأولى، فهمست إلى نفسها:

– هنا رأيته، وهفت له روحي، وخفق له كياني. هنا همس قلبي إليه همسات لذيذة، لا زلْتُ للآن أذكرها. وهنا زلزل وجودي، وتحطم كبريائي، وفتح قلبي على مصراعيه أمام نفسه الحلوة، وانسقْتُ مع طيفه الملازم لي أيامًا ما كان أهنؤها حتى تلاقينا. فظللت أنهل من

كأس السعادة يومًا كاملاً، وفجأة جفت الكأس؛ وكأنها لم تكن ... ليت عيوني تراه!!

وفحصت المكان وكأنها تشاهده للمرة الأولى، ولكم كانت دهشتها وفرحتها حين رأته واقفًا ولكنه كان تعبًا كليلاً، وعلى وجهه ابتسامة شاحبة مريضة..

فهامت روحها، وعاد لها الأمل! وشدا فؤادها وترنم، وغرّدت في نفسها حمائمُ البهجة والسرور، فهفا إليها (وحيد) مذهولاً، ودنا منها مسحورًا. سارا سويًا في الطريق إلى بيتها..

حادثها وصدى صوته - في نفسها - يشوبه الأسى الحزين:

- أرى أنك غاضبة بسبب احتجابي لك المفاجئ، لقد أحسست بهذا من صمتك ..

فحاولت مقاطعته، ولكنه ابتدرها:

- أرجوك لا تقاطعيني، دعيني أفضي لك بما في نفسي، إنني ما كنت أتخيل أن أمرض بعد أول لقاء بيننا ... لقد

مرضت مرضًا لاذعًا؛ نال من قواي، وسرى في كل أعضائي، فتركني طريح الفراش خامد الجسد. وكنت وأنا على تلك الحالة كالمحصور أريد الانطلاق، فألقاك لأسعد بك، ولكن الخمول والوهن كانا يمسكان بي عن الانطلاق إليك؛ فتنداح في نفسي الحسرة، ويخيم على فراشي الإخفاق والخيبة.

فتنهدت (سلوى) وقالت:

- عجبا، إنني دائمًا كنت أتهمك بالتقصير في حق حبنا الوليد.

فأمسك وحيد بيدها، ثم أردف متابعًا حديثه:

- وكثيرا ما كنت أغيب عن الوجود، وأشعر بالموت يحوم حولي، فكنت لأجلك أغالب غيبوبتي، وأجاهد الموت المتربص بي؛ وأتحامل على نفسي لأذهب للقياك، ولكنني أسقط مجهدًا منهوكًا. فأظل أناجيك، وأناجيك بطيفك الذي جسمته بالعقل وبالعاطفة معًا، ولكن سرعان ما كان يذهب بقدر سرعة مجيئه ... وكنت أناديك من وسط أوجاعي أن تعالي إليّ، ولكن لا أرى إلا أصداء

تتجاوب، وأصواتًا يعلو رنينها، ثم لا تلبث أن تزوي في فراغ حياتي..

صمت مغالبًا اضطرابه، وتابع بعد برهة يقول:

- وكنت في أغلب أوقاتي أهتف باسمك، وأشدو به حتى تلهّف من كان حولي لرؤيتك، وكانت خالتي أشد تلهفًا وأكثر استطلاعًا. وحينما علمت بأنك نفس الفتاة التي تشبه نعمة بكت، وطلبت مني أن أجعلك تقابلينها. واليوم حينما أخذ المساء يزحف على الحياة أحسست نشاطًا في نفسي وأملاً ، ورأيت في خفقات قلبي توسلاً للقياك؛ فانسللت من البيت، وأتيت منزلك؛ حيث المعبد الذي يحويك، ولكنني بُؤْت بالخيبة عندما انتظرتك طويلاً، ولم أرك، فهمت على وجهي في طرقات المدينة أبحث عنك، وأهمس إلى النسيم البارد أن يكون لي عونًا. ورأيت نفسي بعد مدة طويلة منجذبًا إلى ميدان الساعة، أسير إليه كالمسير الذي لا إرادة له، ولا تحكم في نفسه، حتى وقفت في مكاني، مكان رؤياك في أول الطريق إلى الحب..

فقاطعته (سلوى) في شبه همس:

- حتى التقيت بي، ما أكثر ما كنت أتهمك بالتخلي عني وهجري، ولكني كنت أمني نفسي بقولي: أمن أول لقاء يهجرني؟!..

وكان الاثنان عندئذ يقتربان من تقاطع البحر بطه الحكيم؛ فمضيا إلى شارع القاضي المتفرع من شارع البحر؛ ينعمان بمشاعرهما التي تثلج صدريهما، وبعد لحظات دنا (وحيد) منها، وقال في حب:

- لقد حان فراقنا وأنا ما أحب أن أتركك، بل أتمنى دائمًا أن تكوني بجواري، ولولا ما قد أسبب لك من مشاكل وآلام لكنت اختطفتك، وذهبت بك بعيدًا جدًا، حتى لا يعرف إنسان الطريق إلينا..

فأرادت (سلوى) الكلام، ولكن لسانها تلعثم، لفرط اضطرابها؛ فنظرت في ساعة يدها، وقالت في هروب:

- لقد مضى كثير من الوقت وأنا خارج البيت، سأذهب وإلى لقاء آخر.

- ماذا في يدك؟ يخيل إلى أنها مجموعة من الصور، هل لك أن تطلعيني عليها؟
- نعم هي كذلك، وكنت سأعرضها عليك ولكن الوقت أنسانا.

ثم أخذت صوره وأشارت إليها:

- انظر هذه أنا في الوسط، وهذا أبي بجانبي، تلك هي أمي. ماذا ترى فيها؟ أتعجبك؟ لم تفحصها هكذا؟ أتراها ليست جيدة؟!

فقاطعها (وحيد):

- أهذا والدك؟!

فقالت في براءة:

- كأنك تعرفه، نعم هو أبي.
- كلا، لم أره إلا الآن. يبدو لي أنه إنسان طيب.

ثم وقف عن كلامه، وقال مبتسمًا:

- ما أبدع هذه الصورة وأنت فيها! إنك تضفين عليها الروعة والجمال، هبيني هذه الصورة ..

فأعطتها له. فأمسك بيدها وضغط عليها بخفة، فقالت له وهي تتجه إلى منزلها:

- إلى لقاء آخر.

۞ ۞ ۞

بلغ (وحيد) البيت فوجد الخالة تنتظره في حجرته، فحياها ووضع الصورة تحت الوسادة، وشرع في خلع ملابسه، وما إن انتهى من ارتداء ملابس النوم، حتى قالت له:

- شغلت كثيرًا لغيابك الطويل، أين كنت؟

- نعم تأخرت، ولكنني كنت معها ... مع سلوى.

فانشرح صدرها لفرحته الزائدة، وقالت:

- أهي جميلة؟ لقد اشتقت لرؤية الفتاة التي حولت حياتك.

- أجل سآتي لك بها يومًا.

- أتحبها يا وحيد؟

- نعم . أحبها جدًا.

- كيف تشعر بهذا الحب ؟ صفه لي.

- لست أقوى على وصفه، يخيّل إليّ أنني إذا بينته وأفصحت عنه سيكون مآله الفناء، كل ما أشعر به وأنا معها أنني سعيد سعادة لا يحس بها مخلوق غيري.
- نعم يا وحيد، هذا هو الحب الصادق، أتحب أن أخطب لك هذه الفتاة؟

فتراجع الفتى دهشة واضطرابًا، ثم ضحك في خفة، وقال:

- لا إنني لم أنْتَهِ من دراستي بعد، غريب منك أن تفكري مثل هذا التفكير.
- وما وجه الغرابة في ذلك؟! ألست تحبها؟
- بكل تأكيد، ولكن لِمَ هذه السرعة؟ لا يزال أمامي ما يقرب من العامين.

فقامت المرأة ومشت داخل الغرفة قليلاً، ثم قالت وهي متهجة إليه:

- ما دمت تحب هذه الفتاة ينبغي لك أن تخطبها، إلى أن ينتهي العامان فتتزوجها.
- أأخطبها دون أن تتعرفي عليها؟!.

– لا مانع عندي من رؤيتها في أي يوم.

فقال الفتى فرحًا متلهفًا:

– سأريك صورتها، وتستطيعين أن تأخذي فكرة مبدئية عنها.

اقترب من الوسادة، وأخرج من تحتها الصورة، وقدمها إلى خالته:

– هي هذه في الوسط، أترينها جميلة؟ أترينها تصلح لي؟ أعرفت أن أعثر على من تلائمني؟

تفحصت المرأة الصورة، ودققت فيها نظرها، فداخلها شعور بالتوتر والقلق، ودق قلبها بعنف، عندما علق بصرها بوالد سلوى. فقد اندلعت في نفسها أسئلة فجرت ذكريات غير مريحة.

وقالت بعد حين، وهي تشير إلى الصورة:

– من يكون هذا الرجل؟

– هذا أبوها، ماذا ترين فيه؟

فقالت المرأة، وهي ترقب الصورة بعيون تائهة:

– كأني رأيت ذلك الرجل من قبل، ولكن أين؟ ومتى؟ هذا ما لا أتذكره، على كل سأذهب يومًا، وأخطبها لك.

۞ ۞ ۞

تناثرت الأيام تناثر قطرات الماء، وأقبل الربيع، وبعث إلى الحياة، فأعلن قدومه بهذه الرائحة الفوّاحة التي انتشرت في الجو، وتبسمت الزهور له، وضحكت الورود لمرآه، وتآلفت من أجله القلوب؛ فانبعثت منها الأشواق، وفاض منها الهيام..

وانطلقت الحمائم تشدو، والبلابل تصدح، والعصافير تغرد؛ فتضفي على الطبيعة روعة وسحرًا، وتشيع فيها جمالاً يأخذ بالألباب، ويأسر مجامع الروح، وسرى الحب بين الناس، وهو يمسك بمفتاحه المقدس الخالد، فيفتح القلوب المغلقة، ويتغلغل فيها؛ فيفجر موارد النشوة والجوى..

واحتفلت المدينة بميلاد الربيع، فأقيم في أرض منبسطة فسيحة ملأى بالورد – معرضًا يضم شتىَّ الألوان

والأنواع، وتوافد الناس على المعرض، ينعمون بموكب الربيع الخالد في ظل أريجه المعطر، فغص المعرض بالزائرين؛ فكثر الصخب، وعمت الضوضاء، فيتبين مبلغ الفرحة التي تملأ صدورهم، ويلتمس عظيم البهجة التي خالطت أفئدتهم. وفي مكان من أرض المعرض وقف (وحيد) يترقب (سلوى) لهفان، فهما متواعدان على اللقاء في هذا المكان..

رآها مقبلة؛ فأسرع إليها وحياها، ثم احتوت يده يدها، ومشيا سويًا، مبتعدين عن الصخب المتصل الشديد، وجلس بجانبها على مقعد واحد، وأصوات الناس تصل إلى آذانهما خفيفة، فكانت هذه الأصوات الخفيفة مبعث طمأنينة لهما من الرقباء، وكانت الضحكات السريعة البعيدة تنبع في جوفهما أحاسيس لذيذة، وسمت بهما إلى أفق مسعد، يهيمان فيه بأجنحة الهوى..

كانت الورود منتشرة حولهما في كل مكان، بألوانه الحمراء والبرتقالية والبنفسجية والزرقاء، بينما أخذ أطفال

بملابس ملونة يلعبون ببراءة بالقرب منهما.. التقط (وحيد) وردة، وقلبها بين يده، ثم نظر إلى سلوى طويلاً، وقال:

– أرى أنك عابسة، ومكتئبة!!

فأطرقت الفتاة واجمة، فمسح بيده على يدها، وردّد:

– ماذا أصابك؟ أين البسمة التي تبعث فيَّ الأمل، وتزيل من وجودي الوحشة؟ أين حديثك الحلو الذي ضمد جراحي، وآسى كلوم قلبي؟

فقالت سلوى، وهي لا تزال مطرقة:

– ليس بي شيء، ونفسي كما كانت، وكما تكون، لن تتغير، ما تراه فيَّ ليس إلا وَهْمًا.

فقاطعها وحيد:

– كلا، إنك متكدرة، فعيونك التائهة الحائرة توحي لي بأنك غير سعيدة، أرجوك لا تجعلي الشك يتمكن مني.

فرفعت سلوى إليه رأسها، فرأى الدموع تتراقص في مقلتيها، فهفا إليها هامسًا متوسلاً:

- إنك تبكين، أرجوك لا تبكي، فإن نفسي تكاد تذوب أسفًا وحزنًا.

انقضت لحظات، قالت سلوى بعدها في عمق، وهي تنظر إلى بعض الأطفال وهم يتراقصون:

- ما أسعد هؤلاء الأبرياء!! انظر إليهم، حياتهم كلها مرح وضحكات، لا يحسون بمتاعب الدهر، ولا بهموم الحياة.

- متاعب وهموم!! من أين لك كل هذا؟ أفصحي، فإن صبري نفد..

فقالت وعيناها تواصلان متابعة الأطفال:

- ما مستقبلنا معًا إلا ظلام حالك، ليس به ثغرة لضوء، ولا منفذ لشعاع؛ لينير لنا طريقنا في الحياة، فدائمًا ما أشعر بأن خبنا لن يدوم، وبأن ثمة هوةً هائلة تفصلني عنك.

- تخلي عن هذا، ودعينا نرشف من نبع الأمل؛ فهو مهدينا إلى الحياة السعيدة.

– ليتني أقدر يا وحيد، إنني كثيرًا ما يتراءى لي حينما أذكرك، يتراءى لعيني ظلام مخيف، ظلام يحول بيني وبينك، ظلام يموّه الطريق إليك؛ فأقف مرتجفة، وأصيخ بسمعي علّني أسمع صوتك الحبيب، فأسمع ما يفزعني..

توقفت عن الكلام لتندمج في بكاء مكبوت، فوأد الفتي انزعاجه واضطرابه، وجفف العينين الباكيتين، وبصوت أفعمه الأسى والحزن، قال لها:

– ما أعمق تفكيرك، لا تبالي بالغد، اليوم لنا ملكنا، ما دمنا سويًا، وكفانا ذلك، دعي المستقبل جانبًا، وانظري إلى الحياة بعين الحاضر، ستجدينها سعادة وأملاً وسلامًا.

فنظرت إليه بنظرة الطريد الذي عثر على ملجأ بعد إجهاد، وألقت برأسها على صدرها ساكنة، فربت على كتفها في حب، وقال راضيًا:

– سأسمعك خبرًا شائقًا، أأقوله؟

فقالت بفضول:

– شائقًا؟ قله لي.

– ستذهب خالتي غدًا لمقابلة والديك؛ للتحدث في شأننا.

فهبت الفتاة واقفة مرتبكة، فأمسك (وحيد) بيدها، وأجلسها ثانية، وقال:

– ماذا بك؟ إنك من الغد ستكونين خطيبتي.

فاحمر وجه الفتاة، وقالت نشوى:

– ليس بي شيء، ولكني...

فقاطعها سريعًا:

– ولكن ماذا؟ لقد قلت لخالتي ما أردت أنت قوله، ولكنها أصرّت، وكان إصرارها يزداد يومًا بعد يوم، حتى عزمت على الذهاب غدًا إليكم..

وتلاقت عيونهما لهفة وهيامًا، وقاما معًا يجوبان أرض المعرض، ويستعرضان ما فيه من مشاهد وزوايا وردية ذات دوائر، ومستطيلات، ومربعات.

✿ ✿ ✿



الفصل السابع



الفصل السابع

هبت نسمات الربيع الرقيقة على المساء؛ فأنعشت القلوب وتفتحت لها النفوس، وعطّر الجو عبيرها الفوّاح المنبعث مع النسيم.. وكانت (سلوى) تجلس مع والديها، والقلق اللذيذ يعبث بقلبها، والاضطراب المُسْعد الحلو نال مجامع جسدها؛ فتبتسم بين حين وحين، بلا تحكم وبدون أن تدري.. همس قلبها إليها همسًا؛ جعلها تترنح على الأريكة نشوانة سكرى ... "أترينه سيأتي! نعم سيكون هنا بعد وقت ليس بالطويل"..

وضعت سلوى يديها متشابكتين على صدرها، وتنهدت ساهمة؛ فعاودها همس القلب مرة أخرى:

- "نعم سيأتي .. كما قال لي سيأتي ومعه..." ...

وهنا خفق فؤادها خفقًا شديدًا متصلاً أسكتها. وتركها يمتلئ وجهها الهادئ بدماء الخجل الحارة الملتهبة..

تنبهت سلوى وقامت إلى الشرفة مسرعة، عندما رأت الأبوين يتهامسان بحديث. هو بلا شك في شأنها، وودت لو تعرف ما يدور بينهما، وتمنت لو تشترك في هذا الحديث الشائق، ولكن اضطرابها المسعد وقلقها اللذيذ لم يلبثا أن شغلاها عما تودّ وتتمنى..

أخذ الأب الذي جاوز الخمسين نفسًا طويلاً، وعلى وجهه تبدو الفرحة، ورمق الابنة بنظرات حنونة بارة، ثم أطرق يتابع حديث زوجه:

- وجاءت إحدى صديقاتي وأعلمتني أنه سيحضر مع خالته هذا المساء.

نظر الأب إليها، وقال ومسحة الحزن على وجهه:

- يا للفتاة!! أستتزوج هكذا سريعًا؟ نعم لقد غدت امرأة ناضجة لازلت أراها نفس الطفلة الوديعة التي ...

فأمسكت الزوجة يده وضغطت عليها؛ فنظر إليها طويلاً ... وسكت، فنشر الصمت جناحيه على المجلس؛ فصار ساكنًا وادعًا..

كان الرجل تبدو عليه الصرامة والشدة، ومن يراه يشعر لأول وهلة أنه قاسٍ فظٌّ غليظ القلب، ولكنه حينما يتحدث ويتدرج في الحديث يجد محدثه فيه الطيبة والوقار، ويرى أنه أمام رجل عركته الأيام وحنكه الدهر ... كان رحيما يحمل بين جنبيه قلبًا مليئًا بالحنان والحب..

وكان الرجل كثيرًا ما ينأى بنفسه عن جو البيت، فيدخل حجرة مكتبه، ويغلقها عليه، وتمر به سويعات، وهو شارد الذهن سارح الفكر، يمتعض وجهه لذكرى بعيدة تبدو عزيزة عليه..

وكان لا ينتهي من شروده وسرحانه إلا حينما يسمع صوت زوجه آتية إليه تدعوه لشيء، فكان يترك الغرفة، ويحاول قدر جهده أن يكون طبيعيًا أمام زوجه وابنته..

كانت زوجه تسأله كثيرًا عن سر انطوائه على نفسه الساعات الطوال، وعن سبب امتعاضه، وتغير نفسه حينما يخلو في مكان، ولكنه يضحك لسؤالها مرغمًا، ويسرع بالهرب إلى مواضيع أخرى؛ فكانت هي تذعن وتستسلم لهربه..

۞ ۞ ۞

دق جرس الباب؛ فدفق قلب (سلوى) بعنف، وعلقت بصرها على الباب عندما ذهبت الخادمة إليه وفتحته. ودخل (وحيد) وخالته بجانبه، فاستقبلتهما الأم مرحبة بهما. وسارت معهما إلى غرفة أنيقة .. وأخذت السيدتان تتحدثان في هدوء ودعة، فشغل وحيد نفسه بإجالة بصره في أنحاء الغرفة؛ يستعرض ما فيها من لوحات ورسوم جميلة، قد رسمتها فتاته (سلوى).

لمحته (سلوى) وهي في الشرفة، من باب الغرفة النافذ إليها؛ فرقصت مشاعرها على أوتار قلبها، التي تعزفه يد الحب الجميل..

رآها وحيد فهامت روحه، وبدون أن يدري قام واقفًا، وأراد أن يمشي إليها، ولكنه وجد رجلاً يدخل الحجرة في خطوات وئيدة، أيقن أنه والدها، وقامت الزوجة قائلة:

- هذا زوجي والد سلوى..

هبت الخالة فاغرة فاها؛ تفحصت الرجل بنظرات نفاذة، ووقف هو الآخر يحدجها بعينيه، والاضطراب يذيع في صدره، والرجفات تسري في جسده، وهتف بصوت أجش:

- ماذا أرى؟! لا أكاد أصدق عيني .. توحيدة، ألنت هي؟

فرجعت المرأة أعوامًا طويلة إلى الوراء ... وتمثلت الرجل الواقف أمامها، تمثلته شابًا؛ فصاحت صيحة مكبوتة:

- من؟ زكي؟..

ثم جلست على المقعد، بوجه أصفر ونظرات زائغة. ولف الغرفة سيكون عميق.

أخذ الشاب يرمق الرجل وخالته بعيون ملؤها الحيرة، وبقلب واجف، وقرّ في نفسه أن ثمة شيئًا خافيًا لا يعلمه، ويجب الآن أن ينكشف له، ثم يتغلب على حيرته وتردده، ويقول مبددًا هذا السكون:

– إنكما متعارفان . حسنا !

ولكن صوته ما برح أن زوى وسط الصمت الشامل العميق .. فسكت!

اشتعلت في جوف الخالة ثورة حانقة؛ فقالت وعيونها يتطاير منها الشرر؛ وصوتها يتردد في محيط الغرفة جافًا رهيبًا، كأنه صوت الزمن القادم من مسافات بعيدة:

– أخيرًا يا زكي، بعد هذه السنين الطويلة، هذه أنا توحيدة كما تراها، عجيب منك أنك لم تنس كما نسيت..

فقاطعها الرجل مرتبكًا:

– أجل، توحيدة؛ أجئت تخطبين ابنتي لابنك، حسنًا إني أتشرف بكما؟

- ماذا تقول؟ ما تراه أمامك ليس إلا ابنك وحيد!! ألست تذكر ... ألست تذكر امرأة كانت تحمل في أحشائها جنينًا، ومعها طفل صغير لم يزد على العام الثاني، وكان يبكي حين تركتهما، ولكن لقسوة قلبك لم تستمع إلى بكائه؛ ولم تتلفت أيضًا إلى توسل الأم السقيمة وهي تغادر "كفر صراوة"، ألست تذكر هذا الطفل؟ إنه أمامك الآن كما تراه رجلاً متكاملاً، انظر إليه؛ إنه صورة منك، ولكنه أطيب منك قلبًا.

فجلس الرجل على المقعد، والعرق يسيل من وجهه، ثم نظر إلى المرأة وإلى ولده، ونفسه يساورها الخزي والخذلان..

وتابعت المرأة حديثها:

- تركتها بالكفر معي في أيام كانت موعد ولادتها، ولم تراعِ آلامها، ولم تترفق بأمومتها، ولم يَرِقّ قلبك حين غشي عليها أمامك؛ تركتها مع طفلها الذي كان يبكي لفراق أبيه؛ وكانت أيام مضت؛ فلم تلبث أن أتت بطفلة؛

وتربى الطفلان وهما يحسان مرارة اليتم، وتتعذب أمهما بألم الوحدة والفراغ، يا للقدر وتصاريفه عندما يسخر منا! هكذا تلاقينا حيث أطلب ابنتك لابنك..

فانطلق الرجل يحدثها:

- كم شعرت بالندم والأسف لما حدث، ولكنني ذهبت وبحثت في كل مكان..

فقالت المرأة في حدة:

- متى؟ وأين بحثت؟ أيها القاسي المجرد من الرحمة!

- ذهبت منذ أعوام إلى الكفر بعد أن رجع إليَّ صوابي، وهناك علمت بموت فتحية، وأنك أخذت ولديها وتركت الكفر، وأن أخباركم انقطعت عن أهله، فكنت أسأل كثيرًا، وكان الجواب يأتيني من بعيد ومن قريب بأن أحدًا لا يعلم شيئًا، ولم أيأس، بل كنت أحس أنني سأرى ولديَّ يومًا؛ لأطلب منهما الغفران لما اقترفته في حقهما من هجر؟..

واعترى الرجل خمود لاذع فسكتت حركته، وكأن جسده لم تعد يسري فيه ماء الحياة؛ ثم انهمرت الدموع تغسل وجهه، عند ذلك اندفعت الخالة قائلة:

– أهي دموع الندم؟ أهي يقظة ضميرك أخيرًا؟ كفّر إذن عن ذنبك، كفّر عن الأذى الذي أصاب (وحيد) و(نعمة) وأمهما؛ من جراء تغاضيك عن الضمير، وعن حق البنوة عليك، كفّر بدموعك وندمك؛ فلست تملك إلا سواهما..

وقالت الزوجة الأم:

– أكان هذا سر انطوائك على نفسك، وبُعْدك عنا الساعات الطوال؟! أكان هذا سبب شرودك الطويل، واندماجك في التفكير، حين تلتمس الوحدة، وتخلو بنفسك في مكان؟!

مضى كثير من الوقت والرجل مطرق إلى الأرض؛ لا يستطيع أن يرفع رأسه، ويلقي بصره بين المرأتين؛ لا يستطيع ذلك لمبلغ إحساسه بشدة جريمته في حق البنوة والزوجية، في حق ابنه وابنته وفي حق زوجته..

- ما أشد تعاستي !! ترى أين هي ابنتي ؟! لابد أنها فتاة جميلة ناضجة؟

هكذا تبادر ذلك السؤال إلى ذهنه، فحاول أن يتكلم، ولكنه آثر الصمت والاستماع لحديث المرأتين الذي ينزل عليه كحمم محرقة.

فكان حديثهما طويلاً، شقت نفسه به مدة استماعه إليه، وتصدعت له أعصابه فانهارت؛ فألم بوجوده ما يشبه الإذعان والخضوع والحيرة.

۞ ۞ ۞

صدم (وحيد) بما سمع، وروّع قلبه لهول ما علم، واهتزت نفسه انفعالاً، وزلزل وجوده أسفًا واضطرابًا، وسكن لحظات طويلة، وصمت بعمق، كأن سلطان الوجوم الأخرس قد حوم حوله! فتركه هكذا يسمع ولا يتكلم.

وفجأة بدد وجومه الأخرس ما يشبه الأنين، ونفذ من جسده وغاض في أعماقه؛ فنبهه وأخرجه من إطراقه وصمته؛ كان الأنين آتيًا من الشرفة يتقطع بين لحظة

وأخرى، فتحامل على نفسه، وسار حتى بلغ مصدره، فرأى (سلوى) منكبة على مقعد، وهي تدفن وجهها فيه؛ لتحبس نشيجها، وتخرس بكاءها، فوقف بجانبها حائرًا، فأحست به، وتطلعت إليه محمرة العينين؛ وخصلة من شعرها الشقر سقطت على جبهتها؛ فزادتها جمالاً على جمال وفتنة على فتنة.. وابتسم لها ابتسامة شاحبة، ليس فيها حياة كبسمة الموشك على الموت، ابتسم لها مرغمًا كمن يرى أنه ينبغي له أن يفعل ذلك؛ ليخفف الخطب ويهون الرزية، فقامت هي وعانقته، وبكت على كتفيه، وبللتهما بالدموع المتدفقة من أغوار قلبها!

فربت الفتى عليها بحنان وإشفاق وأبعدها عنه برفق، فارتمت بين يديه، وقالت ونشيجها يكاد يخفي صوتها:

- لا تبتعد عني إنني لك، وأنت لي كما كنا نقول بالأمس وغير الأمس.

- لا .. إنك أختي من لحمي ودمي ومن أعصابي، تجري في عروقنا وأوصالنا دماء واحدة، هذا الرجل أبي كما هو أبوك؟

فقالت الفتاة والتهور بلغ بها مبلغه:

- لا تسمع لما يقولون، إنما هم يريدون أن يفرقوا بيني وبينك، لقد تحاببنا منذ أن تلاقينا، وسنظل نحمي هذا الحب، ونرويه بعواطفنا حتى نموت عليه.

ولما رأت (وحيد) صامتًا لا يتكلم صاحت في هذيان:

- ماذا بك؟ قم بنا نذهب من هنا، ونبعد عن الذين يريدون أن يحرمونا لذة الحب، ويبتغوا أن يفرقوا بيننا، هيا أيها الحبيب الوفي ننأى عن هذا المكان، ونهرب بحبنا المهدد.

- لا أقدر على فعل ما تشائين؛ إنك أختي، وحرام عليّ، وما كلامك إلا من وحي الشيطان، تبصري يا أختاه،

وانظري في أمرنا بعقلك لا بقلبك وعواطفك، وأنت من الآن أختي كما سأكون لك أخًا.

فانفجرت الفتاة باكية منتحبة بكاء المذعن ونحيب المستسلم الخاضع، فضمها الفتى إلى صدره في أخوة، وتساقطت من عينيه دمعتان ثقيلتان، راحتا تسيلان على وجهه في صعوبة، وكأنما تمزقان فيه تمزيقًا، وما زال يلاطفها، حتى خبت فيها الثورة المضطربة..

۞ ۞ ۞

– ما اسم ابنتي؟ وأين هي؟ صفيها لي، فأنا لهفان لرؤياها!

هكذا قال الرجل للخالة مستفهمًا، فقالت المرأة هادئة:

– نعمة، ذلك اسمها، كانت جميلة رقيقة طيبة النفس ملائكية الروح.

وسكتت فجأة، ونظرت إليه غضبى، ثم أردفت تقول:

– أين هي؟ تريد أن تعلم أين نعمة؟ لقد ماتت، نعم ماتت.

- ماتت !! كيف؟ ومتى؟

فأخذت المرأة تسرد عليه ما كان من أمرها، منذ نشأتها، طفولتها وصباها، وأخيرًا شبابها الذي ابتليت فيه بمرضها الخبيث؛ فكانت أن غادرت هذا العالم، بعد ما حطمها الألم والعذاب.

عندما سكتت المرأة، وبلغت آخر حديثها تلفت الرجل بعيون زائغة، وبانزعاج هبّ من مكانه فجأة قائلا:

- أين (وحيد)؟ أين ابني؟ إنه ليس هنا، أين (سلوى)؟ لابد أنها علمت بكل شيء، يا لنفسي من هذا الشقاء النازل عليَّ في هذه الساعة التي بدلت كل شيء.

ثم أسرع تاركًا الغرفة، والمرأتان في أثره يبحثون عن الفتى والفتاة، فوجدوهما في الشرفة، وهو يجلس بجانبها يهدئ ثورتها، ويجفف وجهها المبتل؛ وأمام هذا المشهد المبكي وقف الرجل يغالب دمعتين تريدان الانبثاق من محجريهما. ووقف الاثنان صامتين حانقين عند رؤيته، فهتف الرجل مترفقًا:

- مرحى ... مرحى، إنني سعيد بكما للغاية!

فحدجته (سلوى) بنظرة طويلة انفطر لها قلبه ... وإلى (وحيد) رنت إليه ولْهَانة، وخرت على الأرض فاقدة الحس غائبة عن الوجود، وسقط (وحيد) معها جاثيًا على ركبتيه، يربت على وجهها، ويهزها ويعمل على إفاقتها؛ حتى بدت الفتاة تعي ما حولها، وتشعر بما يدور بجانبها.

ودنا الأب من ابنه، فتفرس فيه (وحيد)، ثم أجهش بالبكاء، فحاول الأب أن يضمه إلى صدره، ولكنه هتف قائلاً:

- كلا، كلا، لا تقترب مني، إنك المتسبب في كل ما حدث.

- ليس لي ذنب يا ولدي، إنما هو القدر الذي شاء أن يقلب ما سكن في الأعماق، ويطفو بالحقيقة المخيفة، ويخرج بها إلى طريق النور، ويظهرها على سطح الوجود، لنراها ونلمسها؛ فنحكم فيها عقولنا وضمائرنا. هكذا شاء القدر أن أتركك في بدء نشأتك، ثم شاء مرة أخرى أن ألقاك بعد هذه الأعوام الطويلة ... اصفح عني يا بني،

لا تنظر إليَّ بهذه الطريقة الحادة، وكفاني هذا العذاب الذي يصبه على ضميري.

ولكن الفتى لم يقوِ على البقاء، ولا على الاستماع إلى ذلك الأب المستضعف المستعطف؛ فخرج تاركًا البيت هائمًا على وجهه في الطرقات، والوقت يمضي به، وأصوات الناس تشتد بسمعه، وتعلو حينًا ثم تنخفض حينًا آخر؛ حتى بلغ بيته فدخل حجرته، وألقى بنفسه على فراشه، يبكي وينتحب بائسًا يائسًا من الدنيا والحياة!

۞ ۞ ۞

الفصل الثامن



الفصل الثامن

راحت الحيرة تعصف بصدر الأب، وعوامل القلق أصبحت تملأ حياته، وغدا يشعر كأنه في مغارة شاسعة فسيحة، لا أنيس فيها، ولا سمير يسلوه في حزنه، ويسد ذلك الفراغ الكبير الناشر أجنحته الكئيبة على حياته بعد أن أحس بالهوة العميقة بينه وبين ولديه، منذ تلك الليلة التي تكشفت فيها الخبيئات الرابضة في الأعماق، وبدت واضحة على مسرح الوجود، وبعد أن رأى ابنه ذلك الأمل الذي ومض بريقه أمام عينيه وفي قلبه، بعد أن رآه يذهب مغضبًا حانقًا، ويتركه لحيرته وآلامه..

مضت ثلاثة أيام كان الأب في أثنائها يحاول التقرب من ابنته؛ ليخرجها من وحدتها، وليعمل على إزالة العبوس منها، ولكنها كانت تتمادى في الحيرة؛ حتى تصل إلى قاعها، وتتغالى في التجهم والعبوس؛ حتى تمضي فيها أكثر أوقاتها..

وكان يذهب إلى ابنه متوسلاً إليه أن يأتي معه؛ فمكانه في بيته وليس هنا، وحياته يجب أن يمضيها في جواره فهذا حقه، ولكن (وحيد) ما كان ليجيب توسله، ولا ليحقق رجاءه، بل كان يسرع بالهرب عندما يفاتحه في هذا الشأن؛ فأضحى الرجل في حيرة من أمر ابنه، وفي حيرة من أمر ابنته..

وإذا به يخطر في رأسه خاطر ينير له طريق الخلاص، كان خاطرًا يبعث فيه همسًا، وكلمات سرعان ما تتلاشى عندما يتنبه الرجل ويبعده..

- " أنت تقدر على إسعادهما، إذا دبرت من أمرك، واجه الفتى بما تخفيه بين طيات السنين، بل واجهها لتريح

ضميرك، ويهنأ قلبك، وتطرد حيرتك، ويطمئن فؤادك".

وكان الرجل يئد خاطره، ويكبت همساته بهمس آخر:

- "لا أستطيع أن أصرح بأسرار يأباها عقلي، ولا ترضاها إنسانيتي". ثم دائمًا يقف عند هذه الكلمة، ويضحك ساخرًا من تفكيره وخاطره العنيفين!

۞ ۞ ۞

في إحدى الليالي جمعت الظروف بين الزوجة وزوجها المكتئب الحزين، وهيأت لهما الأحداث المتعاقبة الرتيبة أن يبحثا في أمر (سلوى) وأن يبتّا في شأنها..

جلس الرجل وزوجه والصمت مضروب، وفي نفسيهما حديث، يريد كل منهما أن يفضي به لصاحبه، ولكنه ينتظر حتى يبدأ الآخر، وطالت جلستهما، وطال أيضًا صمتهما؛ وأخيرًا قال الأب، وفي نبرات صوته الأسى العميق:

- أين هي؟ أظنها كالعادة في حجرتها المغلقة.

- إن حزني يفعمني يومًا بعد يوم! وأنا أجدها هكذا بعيدة عني، أريد أن أعمل شيئًا لأجلها.

- نعم يجب عليَّ أن أفعل شيئًا من أجلها، وقد فكرت كثيرًا وأخيرًا عزمت.

فقالت زوجه منزعجة:

- ماذا تقصد؟ أأستطيع أن أفهم أنك تريد أن ... ؟

فقاطعها دون أن يلقي بالاً لقولها:

- لقد سئمت رؤيتهما هكذا، يترديان أمامي في تلك الفجوة اللعينة فجوة الحرمان، إنني أكره على نفسي حين ألتمس ابني، فيهرب مني ويأبى رؤيتي، وأكره نفسي حين لا أقوى أن أمسك دموع (سلوى) المنهمرة. لِمَ أجعلهما هكذا يدثرهما العذاب، وأنا بيدي إسعادهما؟!

فقالت المرأة وصوتها يرتجف:

- لا، لا تفعل؛ إنك بذلك ستحدث صدمة أعمق أثرًا، عدني ألا تفعل، عدني ألا تتفوه بشيء مما يضطرم في صدرك.

فقال الرجل مهموم النفس:

- لا أقدر أن أعدك؛ فلا يمكن أن أراهما يذوبان عذابًا وأنا واقف أشاهدهما.

- إنك تصر إذن أن تخوض في حديث طوته السنين.

- نعم أصر؛ فقد آن الحديث القديم البعيد أن ينكشف، آن له أن يروى، أفهمت؟!

ثم صمت، وقام يقطع المكان جيئة وذهابًا، ثم أردف مواصلاً حديثه:

- كيف نرى إنسانا يموت عذابًا، ونسهم في تعذيبه وموته.

- إنني لا أوافقك على ما أنت فاعل؛ فابحث عن حل آخر.

- لست أرى حلاً إلا ما أنا فاعل، غدًا سأرسل إلى ابني، وإن لم يأتِ سأذهب إليه وأعلمه.

فقامت المرأة، وسارت وفي قلبها الوهم والقلق..

۞ ۞ ۞

مضت بالفتى أيام، منذ تلك الليلة. كان يحيا مع انقضائها حياة يائسة مملة؛ جعلته معطل التفكير، مقفر الذهن، فلا يقدر أن يفعل شيئًا حيال (سلوى)، حبيبة روحه،

وعزاء ماضيه المؤلم؛ لا يقدر على التفكير في أمر الفتاة المجففة لدموع شقائه، والتي أصبحت أخته!.. فوقف منها موقف اليائس؛ فلا يتسنى له أن ينهج منهجًا يرضاه وترتاح له نفسه!

كان اليأس الذي يخالطه الملل يمنعه حتى من الذهاب إلى منزل أبيه؛ ليلقى فتاته التي غدت بحكم الشرع والطبيعة أخته وابنة أبيه، وكان دائمًا يهرب من الحقيقة عندما تدفعه إلى النظر في شأنها؛ فكان يبلغ الأمكنة البعيدة عن الناس؛ حيث الطبيعة الضاحكة، ولكنه يراها متجهمة واجمة؛ فيقفل راجعًا إلى بيته موزع النفس خائر القوى..

في صباح يوم استيقظ مذعورا، وجلس في فراشه، والعرق يتناثر في وجهه؛ فقد رأى في نومه حلمه القديم، وتمثلت له رؤياه التي بدت في منامه، يوما قبل موت (نعمة)، ولكن الرؤيا في هذه المرة لم تكن فيها نعمة، وإنما أخته (سلوى) تستنهضه؛ لينقذها ويخرجها مما تحيا فيه..

عجب الفتى بعد هذه الرؤيا، وفكر كثيرًا؛ وغاص بمجامعه في أعماق الفكر، وارتوى من نبع الضمير، فسار

إلى حيث المنطق والحكمة، فرأى أنه على خطأ شديد؛ وأنه في حاجة ملحة لرؤية (سلوى) أخته..

مضى أكثر اليوم و(وحيد) يريد الذهاب إلى بيت أبيه؛ ولكن أعصابه في النهاية تخونه وتنهار، في اللحظة التي يعزم فيها على الخروج، فيحاول مرة وأخرى، وإذ به يرى أن والده أتى يدعوه إليه، فيهب لأول مرة للقائه لقاءً غريبًا عجب منه الأب الحيران. ويتحدث الأب إلى ابنه وقتًا طويلاً، ويبعث فيه حديثًا أفاض على وجهه الفرح والامتعاض معًا..

لم يتمالك نفسه فعانقه عناقًا استمر لحظات، فربت الأب على ابنه، وقال يتابع حديثه؛ والخالة قد أتت على أثر الجلبة التي يحدثها ابن شقيقتها، قال الأب في حضور الاثنين:

– حينما هجرتك وأمك تزوجت بزوجتي الحالية، تزوجتها بعد حب عنيف، ولكننا لم نرزق بأطفال، وكانت هي تتمنى أن ترى في بيتها طفلاً، فتفاهمنا يومًا وذهبنا إلى

مؤسسة للأيتام، وتبنينا طفلة كان عمرها في ذلك الوقت عامين أو أكثر قليلاً، كانت جميلة غاية في الدعة والطمأنينة؛ سرعان ما أحببناها حبًا ملأ علينا حياتنا، ولم تكن تلك الطفلة إلا سلوى، التي لم أحب أن أخبرك بحقيقتها حينما عرفت أنك ولدي..

وتنهد الرجل في راحة، وكأنما أزاح عن صدره عبئًا ثقيلاً، ثم قام قائلا:

- هيا يا ولدي، فيحسن بك أن تأتي معي الآن ..

✿✿✿

في ذلك الوقت وفي هاته الساعة التي كان الأب فيها يحادث ابنه، وفي جو البيت المتكاثف حزنًا- كانت (سلوى) في شرفتها جالسة، وقد وضعت رأسها بين راحتيها تنظر بعيدًا إلى الأفق النائي، والشمس بدأت تضفي عليه لونًا أحمر خفيفًا، وتابعت الفتاة شمس الكون حتى اختفت، وغابت خلف الخيط الواصل بين الأرض والسماء. فأظلم الوجود؛ فازداد اضطرابها وانفعالها؛ لكأن الطبيعة

كانت منذ لحظات تزيل آلامها، أو لكأنها كانت تلهيها عن بعض ما يراودها ويتهجم عليها.

– الموت أهون من هذا الملل! وتلك السآمة الموحشة! البعد عن هذا العالم أهون علي نفسي من حياتي اليائسة..

ذلك بعض ما بدأت الفتاة تهمس به إلى نفسها بعد غياب الكوكب الدامي، وكان ذلك الهمس نتيجة ما تعانيه من خواطر سوداء، أزالت من حولها الأمن، وطردت من جانبها الدعة والسلام، إنها تفكر تفكير اليائس القانط الذي لا أمل له..

إن كل شيء موصد أمامها. فلا ترى منقذًا ينقذها، ولا ترى بابًا يخرجها من حرمانها ويأسها إلى النور والأمل والصفاء؛ كان الظلام يدثرها من كل حدب، أمام عيونها وفي مستقبلها، وفي قلبها، ولم تَقْوَ وسط هذه الدوامة أن ترى وسيلة تبرر ذلك الحادث الجلل الذي علمت به، إنها أخت هذا الحبيب معبود القلب وأسيرة حبه وعاطفته، أضحت أخته وكفاها ذلك بيانًا ووضوحًا..

وإذا باليأس يبلغ بها غايته؛ فتبدلت إلى إنسانة رهيبة؛ فهبت من مقعدها فجأة، ورمقت الفضاء الأسود البعيد المترامي وراء أضواء الطريق، الذي لا يبدو فيه بريق ولا نور؛ فعاودها الهمس مرة أخرى:

- لست أصدق ما سمعت، كل ما قالوه كذب وبهتان مبين، وما فاهوا به ليس إلا حديثًا يريدون من ورائه غرضًا، ويبغون من خلفه هدفًا.

ثم سكتت عن همسها لحظة؛ لتمسح دموعًا انهملت من مآقيها، وبصوت خافت أقرب إلى الهمس قالت:

- كلا ، كلا ليس كما أظن، إنه أخي وابن أبي، ولا أمل لي في مناجاته وبثه حديث الحب وهمس الهوى؛ لقد كتب الدهر علينا أن نمضي حياتنا أخوين؛ يعطف ويحنو عليَّ، وأقابل أنا عطفه وحنانه بالرضا والغبطة. ولقد أراد لنا القدر ألا نكون عاشقين حبيبين نتبادل سويًا أحاديث الغرام وعبارات الولَه. أفهذه حياة أستطيع احتمالها والمضي فيها؟ وأنَّى لي هذا؟ أنَّى لي الحياة مع

أخ بادلته العشق يومًا، وعلى الحب تجاوبنا وتعاهدنا على الوداد والزواج؟.

خبا همسها، وبلا شعور منها دفعت أصيصًا فخاريًا زرعت فيه وردة حمراء، كان على حافة الشرفة؛ فسقط إلى الطريق متناثرة أجزاؤه؛ فاختفت الوردة التي كانت جميلة تحت أنقاضه وحطامه..

تابعت (سلوى) المشهد واجفة، وإذ بخاطرها تمر به فكرة سيئة، مستوحاة من حطام الوعاء، ووردته المدفونة تحت أنقاضه في أرض الطريق أسفل شرفتها..

فقالت بصوت يرتعد:

- أجل ما أقساها من عيشة، كيف لي الحياة مع أخ بادلته العشق يومًا، وعلى الحب تجاوبنا وتعاهدنا على الوداد ... وداعًا أيها الحب. وداعًا أيها الأخ. أيها العاشق الحبيب. إلى لقاء ليس ببعيد في عالم الخلود..

وألقت البائسة بنفسها من الشرفة في اندفاع، وتهاوت في الجو برهة، ثم سقطت على أم رأسها ساكنة

الحركة، خافضة الحس، مضرجة في دمائها التي أخذت تسيل من رأسها ذي الشعر الذهبي الجميل، وبجانبها حطام الوعاء والوردة التي بدت واضحة للعين عندما سقط الجسد على جزء من الحطام، فأزاحه قليلاً..

وتدافع المارة وأصحاب المحلات بالعمارات القريبة وجلين؛ وتصايحوا مشفقين، وصرخت النسوة في البيوت والشرفات المجاورة مذعورات، وتناثرت هنا وهناك صرخة طفل وصيحة مرتعد وبكاء مفجوع، وسمعت الزوجة – الأم – صياح الطريق وضوضاءه، فكان أول ما فعلت أن نادت (سلوى)، نادتها بكل خوالجها، ولما رأت أنها لم تجب نداءها سارت إلى الشرفة، ففوجئت بالناس يتطلعون إلى حيث تقف، وبينهم (سلوى) غارقة في دمائها.. فهبطت إلى الطريق سريعة صارخة، وجسدها ينتفض حتى كانت مع الناس، فشقت الطريق بينهم، وألقت بصرها على الفتاة. فارتمت عليها، وعلى صدرها أخذت رأسها الدامية – وأطلقت صرخة جزع وفزع.

۞ ۞ ۞

نقلت (سلوى) إلى المستشفى بين الحياة والموت، وهي تكاد تلفظ آخر أنفاسها، وعلم الأب وابنه لما أصابها؛ فذهبا إلى المستشفى؛ وقد ران عليهما الوهم والخوف مما يطويه المجهول، وجلس (وحيد) بجانبها ورأسها مربطة بالأربطة، ولما وجد الغرفة خالية من الأب وزوجه راح يلاطفها ويحاول معها، حتى استعادت انتباهها، ففتحت جفنيها عن مقلتين حائرتين، وأجالتهما في وجوه الحاضرين، فبسموا لها بسمات حانية. ولكن دموعها لم تمكنها من رؤية البسمات الثلاث، فمال الفتى برأسه عليها، ثم قال :

- لا تبكي. هدئي نفسك يا حبيبتي.

فقاطعته بصوت خافت ضعيف:

- لا تقل حبيبتي، بل أختي.

- كلا، بل حبيبتي ... وزوجتي.

وروى الفتى حديث الأب الذي علم به منذ حين، والأب يؤكد كلام ابنه، ويقويه في نفس الفتاة، بتوسله إليها

أن تغفر له ما تسبب لها من آلام، فما كان قصده وهدفه إلا إسعادها..

- كنت أريد أن أخبرك، ولكنني خشيت أن أجرحك فصمتُّ أيامًا، إلى أن عزمت على أن أخبرك، ولكنني لم أقدر على مواجهتك؛ لما يسري فيَّ من خور عندما أتعرض لهذا الموضوع؛ فآثرت إعلام (وحيد)، ليستطيع هو بدوره أن يطلعك على الحقيقة بوسيلة من وسائله.

فقالت فرحى هادئة:

- ما أسعدني، أرى السعادة تغمرني من كل جانب.

فقاطعها الفتى قائلا:

- وما هي إلا أيام قلائل، وأعقد عليك لنملأ الدنيا بالطرب والأنغام.

فقالت (سلوى) بأسى:

- كلامك يبعث في نفسي الأمل، ويجعلني أتعلق بالحياة.

ثم سكتت حينًا، وقالت هادئة بدون أن يقاطعها أحد:

– ولكنني لن أكون بجانبك. سأذهب .. سأذهب وسوف نلتقي مرة ثانية.

ثم سكتت مرة أخرى ... وتابعت، والكل ساكن:

– سأموت! وما هي إلا لحظات وتنتهي الحياة.

سكتت برهة، ثم قالت بصوت واهن:

– أريد أن أعيش، أريد الحياة لأكون بجوارك.

فقاطعها (وحيد) قلقًا، ودموعه تكاد من عينيه تثب:

– دعي هذا الحديث يا سلوى! إنك ستعيشين لأجلي، وللناس الذين يحبونك ويتعلقون بك.

انصرمت لحظات... ولحظات، وإذ به يرى الصدر الذي يعلو ويهبط بانتظام يسكن فجأة؛ فلم يعد إلى الصعود، ويرى العينين تجمدتا على النظر إليه؛ فلم يعد بهما حركة، ويرى الشفتين قد بردتا عن ابتسامة رقيقة ناعمة، وصفرة شديدة هي صفرة الموت كست وجهها الوديع الآمن البديع ... فهتف من أعماقه:

- سلواي؛ سلوى، يا بهجة وجودي، ليس لعيشي بعدك من طعم، ولا لحياتي من لذة، ولا لنفسي من اطمئنان .. ليس لوجودي قيمة من بعدك. أرجوك لا تموتي..

وإلى جوارها جثا يبكيها، ويرفع رأسه ويديه داعيًا الله بصوت متهدج وينادي:

- يا رب، ابعث فيها الحياة من أجلي؛ أتضرع إليك بروحي وقلبي وبإنسانيتي، وبمخلوقك الضعيف أتوسل، وبالبشرية جمعاء أن تعيد إليها الحياة..

ولم تنبعث فيها الحياة؛ ولا إليها عادت، فما أمامه إلا جسد بلا روح وبلا أحاسيس، وبلا نبضات.. وبعد وقت طويل من بكائه أخذوها من أمامه..

وأحس الفتى بوحدته وببعدها عنه، فانطلق يعدو باحثًا عنها، انطلق يسير في كل طريق، ويتطلع إلى كل شرفة، ويتصفح وجه كل فتاة؛ عساه يعثر على ما درس وما فنى! ولما لم يرها، يبكي من ماتت .. من ذهبت ولن تعود.

كتب أخرى للمؤلف

أ- القصص:

- **الجـرح:** مجموعة قصصية، طبعة (٢)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩١.
- **الكلام:** مجموعة قصصية، طبعة (٢)، مكتبة الآداب- القاهرة، ١٩٩١.
- **أمـواج الفردوس:** مجموعة قصصية، طبعة (١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.
- **العائد بالحب:** (رواية) دار الإبداع - الطبعة الأولى، القاهرة - ٢٠٠٦.

ب- الكتب:

- **فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ:** طبعة (٣) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٨.
- **قـيم الإبـداع الـشعري في النقد العربي القديم:** طبعة (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **تـذوق الفـن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩١.
- **فاعلـية الـتعاقب فـي الـشعر العربي الحديث:** طبعة (١) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٥.
- **جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر:** طبعة (٢) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٩.
- **الـصنعة الفنـية في التراث النقدي:** طبعة (١) مركز الحضارة العربية - القاهرة ١٩٩٩.

- **نظرية الإبداع الشعري عند النواجي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٠.
- **الخطــاب النفسي في النقد العربي القديم:** طبعة (٢) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠١.
- **إحكـــام الـــنص الـــشعري في التراث النقدي والبلاغي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠١.
- **تحلـــيل النص الأدبي: دراسات في الأجناس الأدبية** (بالاشتراك مع د. عزة الغنام ود. الزهراء بدوي) طبعة الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠١.
- **تجليات الإبداع الأدبي:** طبعة (١) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠٢.
- **أســـاليب علـــم المعاني بين النظرية والتطبيق:** طبعة (١) مكتبة الآداب – القاهرة ٢٠٠٣.
- **الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق:** طبعة (١) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠٣.
- **الـــشعر العربي في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي:** طبعة (١) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٣.
- **البنـــيات الكاشفة عند نجيب محفوظ:** دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦، الأنجلو المصرية – القاهرة ٢٠٠٤.
- **مـــرايا التجلـــي: رؤى نقدية كاشفة:** طبعة (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- **فـــيض القلـــم: مقـــالات فـــي الـــثقافة والأدب:** طبعة (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- **نجيب محفوظ حالمًا بالقمر:** الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦.

E.mail: Darelebdaa@hotmail.com
الناشر دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع
ت: ٥٣٢٦٧٤٤ - ٥٣١٢٣٢١
٠١٠٦٦٣١٥٨٤

مطبعة العمرانية للأوفيست
المنيب الجيزة
ت: ٣٧٥٦٢٩٩